

المتوسّط الأسباني

إدواردو غونثاليث كاييخا

مانويل فاسكيث مونتالبان

THALASSA

GIFTS 2006

Dr Michael Lange

Cairo

تصورات
البحر الأبيض المتوسط

المتوسط الأسباني

إدواردو غونثاليث كاييخا

مانويل فاسكيث مونتالبان

THALASSA

تصورات البحر الأبيض المتوسط

برنامج أبحاث بإشراف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان

منسق البرنامج : فرانسوا سيينو
سكرتيرة التحرير : جيزيل سايماندي
منسقة النسخة العربية : ماري تريز زهر

رعى البرنامج كل من :
الاتحاد الأوروبي
وزارة الخارجية الفرنسية
المؤسسة الأوروبية للثقافة
مؤسسة رينيه سايدو للعالم المتوسطي
منطقة بروفانس آلب كوت دازور
مقاطعة بوش دي رون

شكر خاص لمؤسسة الملك عبد العزيز في الدار البيضاء
وللجامعة اللبنانية في بيروت لاستقبالهما

الغلاف :
خارطة محمد الإدريسي وهو جغرافي عربي توفي سنة ١١٦٦ .

تم نشر هذه المجموعة أولا باللغة الفرنسية في
دار ميزونوف إي لاروز Maisonneuve & Larose
أما الترجمة إلى العربية فهي بالتعاون مع
مؤسسة كونراد أديناور وتحت إشرافها



تصوّرات
البحر الأبيض المتوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

المتوسّط الأسباني

إدواردو غونثاليث كاييخا

مانويل فاسكيث مونتالبان

THALASSA

إدواردو غونثاليث كاييخا / مانويل فاسكيث مونتالبان

المتوسط الأسباني – بيروت : منشورات تالاسا ٢٠٠٣

© THALASSA EDITIONS 2003
www.thalassa-editions.com

Printed in Lebanon

DYNAMIC GRAPHIC
ISBN: 9953-422-48-6

إدواردو غونثالث كاييخا

بحرنا (Mare Nostrum) في استعمالاته المختلفة: تصوّرات المتوسط في أسبانيا المعاصرة

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

«المتوسّط غير موجود، وما يسمّى كذلك ليس سوى مقالةٍ حول الطالع الذي يبتسم لنا، ليس سوى بحرٍ داخلي يجب أن نبحرَ في مياهه يومياً. مياهه الرقراقة على خلفية القاعِ الأزرق للذاكرة والتطلّع إلى الجمال يحيلانه إلى فئةٍ من فئات الروح. أبداً لا تبكِ من أجل هذا البحر. وإذا قال أحدهم مؤكداً إنّ في هذا المجال المنير للطفولة تبحر اليوم سفن حربٍ مُفسِدة، لا تصدّق. فإنْ قبِلت هذا القنوط كان حتفك محتّماً. ثمة دلافين بزرقةٍ شفيفة سوف تواصل القفز هناك ما دام قلبك نقياً.» (١)

مقدّمة: المسلّمات ذات الطابع الاصطلاحي، والجغرافي والتاريخي

يجدر الاعتراف بأن بناء متخيّل مشترك حول وجه ما من أوجه الواقع إنّما هو مسألة دقيقة. ففي أغلب الأحيان يكون هذا البناء حصيلة تراكم لمعارف موضوعية أو غير موضوعية، متسلسلةً بحسب التجربة التاريخية والاجتماعية. وإذ تُفسَّر بأنها أنماط تداول وتثبيت لمدلول، تقوم صلاحية التصوّرات الجمعية ذات الطبيعة المعقّدة، بهذا القدر أو ذاك، على العناصر التي يتكوّن منها نظام الاتصال : مُرسِل (منتج)، متلقٍّ (حضور أو مستمعون) ومُرْسلة (نسق رموز).

إنّ فعالية الإعلام ترتبط، من بين عوامل أخرى، بالجوار، وبدينامية ووضوح المصدر المُرسِل كما بقدرة المرسَل إليه على أن يتلقّى ويميّز ويفسّر، على نحوٍ ملائم، هذه الحزمة من المنبّهات التي تتألّف منها المرسَلة. فكما في حالة الكائن المشحون للبثّ، يتضح أن تماسك المتلقّي الجمعي هو أمر جوهريّ خلال صوغ رموز متماسكة ومستديمة : فالأفراد، بصفةٍ عامّة، يجتمعون في مجموعاتٍ أو منظمات يتشارك أفرادها في خطابِ هويةٍ مماثلٍ، ويتبنون في كنفها مجموعةً من التصوّرات والمعتقدات المشتركة

التي تعينهم على تفسير العالم الذي يحيط بهم والشعور به.

الواقع أن المتخيّل الجمعي يتكوّن من معايير وعادات وقيم وأماكن ومعتقدات وتصوّرات وأساطير وشعائر وخطابات ولغات وإيديولوجيات وتواريخ، ألخ... من خلالها يدرك الأفراد ويفهمون ويفكّرون ويفسّرون (أي أنهم بالاجمال يعرّفون ويشعرون بـ) هويتهم بوصفهم مجموعةً، وروابطهم بالمجتمع وصلاتهم بالمحيط البيئي.

التصورات الجمعية هي نتاجات ثقافية للغاية تتجلّى في السياسة والأدب والفن والعلم والجماليات والفولكلور أو في الحياة اليومية. وهي تفترض تبنياً لبعض القيم والسلوكات التي يطبقها الأفراد في صلاتهم بالمؤسسات والبنى الاجتماعية التي تؤثّر في حياتهم. وتشكّل الصور والرموز نسيج التصوّر لمجالٍ اجتماعي ثقافي. إن علامات الهوية هي التي تميّز هذه التصوّرات عن تصورات أخرى لحضارات أخرى.

أما الرموز فهي ليست عناصر جامدة، بل، على الضدّ من ذلك، إنها تمثل بين الواقع، بين وعينا لهذا الواقع وبين إرادة الفعل لدينا بحسب قواعد إدراكنا الخاص للأشياء. غير أن هذا الإدراك قد يكون مخترقاً من قبل إيديولوجياتٍ أو ذهنيات متعيّنة تشكّل، مسبقاً، المواقف المختلفة التي قد يولّدها الفعل. وباتباعنا سلّماً لمفهوم الواقع ذاتياً أكثر فأكثر، وتبسيطياً، وجامداً، أي لاعقلانياً، أمكننا أن نعدّد سلسلةً من الصياغات الفكرية ذات شحنةٍ رمزية قوية : هناك أولاً الرأي، بوصفه معرفة ملموسة، محدّدة، ذاتية، متفكّرة وانتقالية لواقعة ما، لفكرة ما، لشيءٍ أو لجماعة. وهناك ثانياً، الصورة بوصفها مفهوماً غائماً لا بل متناقضاً لمجمل السمات المميّزة لهذا الشيء أو هذه المجموعة البشرية. ثمّ هناك التفكير النمطي بما هو مفهوم تركيبي، معمّم ولانقدي منسوبٍ إلى فرد، إلى مجموعة، إلى فعلٍ أقرب إلى الكذب منه إلى الحقيقة. وأخيراً هناك الحُكْمُ المسبق بما هو اعتقاد اعتباطي، وجازم وغير مشروط ناجمٌ

عن عدد من الأفكار النمطية وقائمٌ على التعميم والمبالغة الانتقائية في إطلاق صفاتٍ متعيّنة، إيجابية أو غير إيجابية. إنّ الصور والرموز تقاوم التغيّر بشدّة، وخاصّة بسبب شحنتها الذاتية، لا بل العاطفية التي قد تتأثّر، بدورها، بتبعات تجارب تاريخية، وبحساسيات اجتماعية وثقافية، ومعايير وقيم قديمة، وتقاليد عائلية أو متحدية والمصالح الماثلة في كلّ أوان، وبشتّى أشكال الانعزال المادي أو الفكري، إلخ... هذه الأشكال الرمزية، إذ تتردّد في الخطابات أو عبر مصطلحات أو شعارات، تميل، سواء كانت معقّدة أم لا، لأن تبقى على الدوام في مختلف التعبيرات الثقافية.

ما من شكّ في أن الصورة التي نكوّنها «لشيء ما» هي التي تحدّد موقفنا وفعلنا اللذين، بدورهما، يحوّلان الواقع والإدراك الجمعي له. ومن خلال مثلٍ موافقٍ على أكمل وجه، مستلهمٍ من مطلع العصر الحديث، لكنه قد ينطبق على أي عصر وعلى أي مكان، يبرز ميغيل آنخيل دي بونيس (Miguel Angel de Bunes) وجود عوامل قصدية تتدخّل في السيرورة المطواعة للصياغة الرمزية :

> «إنّ وصف ومعرفة جغرافية الإسلام يتكيّفان مع المصالح الشخصية للأسبان في كلّ إقليم من هذه الأقاليم. باعتبار أن هذه تتدرّج من حيث الأهمية بحسب البعد والاهتمام والوجود الإسباني، فينجم عن ذلك تدرّجاً في المجال. فما هو قريب معروفٌ وخاضع للتحليل، فيما البعيد لا يكاد يتشكّل في رسم.» (٢)

لكي نتطرّق مباشرةً إلى الموضوع الذي نحن بصدده، تجدر الإشارة، أولاً، إلى الصعوبة البالغة التي نواجهها في تحديد العوامل الرمزية التي عدّدناها. ذلك أن صورة المتوسّط في أسبانيا لطالما اتسمت، تاريخياً، بالتناقض واللبس. ومردّ ذلك، أولاً، إلى الطبيعة الخاصّة بهذا المجال، موضوع بحثنا. فإلى خصوصيته الجبلية والمناخية التي اعتبرها بروديل أساساً لوحدته البشرية (هذا «الظرف المتوسطي» الذي عرّفه دوبي (Duby) بأنه مجال سياسي قائم على دولة منظمة حول القانون والجيش، وبأنه مجال فكري

قائم على اتقان الكلام، مهد العلم والفلسفة، ومجال روحي يتميّز بالأديان التوحيدية [٣])، يشتمل بحرنا على تركيبٍ معقد مادي وبشري وتاريخي وثقافي أو ديني، يجعله غير قابلٍ للإحاطة في إجماله.

مثل هذا القصور المعرفي واجه المقيمين على ضفافه في الحقبة المعاصرة. ومع ذلك فالمؤكّد أيضاً أن شعوب المتوسّط قد عرفت، على نحو غامضٍ في الأقلّ، وبفضل التطوّر المبكر لخطوط الملاحة البحرية الإقليمية، الوظيفة المحورية التي يؤديها في محيطها مجالٌ جغرافيٌ يتطابق، جوهريا، مع تخوم العالم المعروف.

هذا المتوسّط الأصلي، المتميّز بتنوّعه الثقافي وبالذهنية المحلية، أصبح كياناً سياسياً موحداً مع بروز عاملٍ ثقافي إمبراطوري مهيمن كالإمبراطورية الرومانية [٤]. ففي البداية جُعل المتوسّط معنىً بيئياً أو مكانياً سهّل بروز النظم التجارية (الفينيقيون) أو الاستعمارية (اليونانيون) في العصور القديمة. والواقع أنّ هذا المدى المتّسع من المياه كان يعبّر بوضوحٍ عن مفهومٍ للعالم. لم يكن هناك، في عرفِ اللاتينيين، سوى بحر واحد : بحرنا، Mare Nostrum ، الذي يمتدّ من ميناء البوسفور حتّى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، ومن الناحية الأخرى، من بونتوس أوكسينوس (البحر الأسود) إلى البحر الخارجي Mare Exterior (الأطلسي). وكان يتردّد ذكره بأنه البحر في استعارة مجرّدة، غير أن المجال الذي يشتمل عليه كان يمكن تقسيمه إلى أجزاء صغرى : البحر الإيبيري، التيراني، الإيوني، وبحر إيجه... ولم تستخدم لفظة mediterraneus إلاّ في اللاتينية المتأخّرة، ولم يكن ذلك للدلالة على بحرٍ متعيّن بل للتدليل على البؤرة المركزية للأراضي القابلة لأن تكون مأهولة، على الضدّ من لفظة maritimus أو المجال الأوقيانسي المفتوح. كان إيزيدور الإشبيلي (٥٦٠–٦٣٦) يستخدم في مؤلّفه « Etimologías» (اشتقاقات) عبارة

Mar Magnum للتدليل على المحيط الذي يحيط بالعالم المعروف، غير أنه كان يطلق تسمية Mediterraneum على بحرنا القديم أو البحر الداخلي Mare Nostrum. أما في الكاستيانية، فقد بات استعمال لفظة «المتوسّط» منتظماً بدءاً بالقرن السابع عشر، باعتبار أن اللفظة وردت صريحةً، على سبيل المثال، في Historia natural y moral de las Indias (التاريخ الطبيعي والأخلاقي لبلاد الهند) لخوسيه دي آكوستا José de Acosta (١٥٨٩).

كما نلاحظ أن مفردة mediterraneus كانت مجرّد نعت لا تحيل إلى بحرٍ بعينه بل تدلّ على الواقع الطبيعي لمجالٍ بحري تحيط به اليابسة. ومع ذلك، فقد جرى تضييق تدريجي للحقل الدلالي للمفردة لكي تدلّ، أخيراً، على مجال جغرافي محدّد : المتوسط حصراً. فقد عرّف Diccionario de Autoridades اللفظة بأنها «كلّ ما يقع وسط أو بين يابستين، وهكذا نسمّي البحر المتوسّط الذي يبدأ من مضيق جبل طارق ويمتدّ بين إفريقيا وآسيا وأوروبا» (٥).

بمضيّ قرن من الزمن، حافظ قبطان الفرقاطة أوسكانلان (O'Scanlan) في «Diccionario Maritimo» (القاموس البحري) على هذا الفصل نفسه بين العام والمحدّد : «تطلق على البحر الذي يدخل عبر مضيق وهو محاط من كلّ صوبٍ باليابسة. وتقتصر هذه التسمية على جزءٍ من البحر الذي يدخل عبر مضيق جبل طارق ويمتدّ حتّى سوريا» (٦).

بقي هذا التمييز سارياً في «قاموس اللغة الأسبانية للأكاديمية الملكية»، الذي يعتبر أن لفظة«متوسّط» توحي «بما ينتسب إلى البحر المتوسّط» لكنها تدلّ أيضاً على «ما هو محاط باليابسة» أو «ما يقع داخل إقليم ما» (٧).

لقد طرأ أحد أبرز التغيّرات على المفهوم الإجمالي للمتوسّط مع تطوّر الحداثة، أي مع تقدّم الثقافة والتكنولوجيا الغربية. ومع ذلك

بقيت مفارقةٌ واحدة. فالواقع أنه بينما لم تكن لفظة «المتوسّط» لتدلّ في العصور القديمة (الحقبة الوحيدة التي حافظ خلالها هذا المجال على حدٍّ أدنى من التماسك الثقافي والسياسي والاقتصادي الاجتماعي) إلاّ على واقعٍ تاريخي جغرافي، فإنّ المحتوى الدلالي للفظة قد اغتنى وتوسّع طوال الحقبة المعاصرة المأزومة، حتّى بات يدلّ على نمطِ حياة، وعلى جماليةٍ، وعلى بقعةٍ من التعاون لا بل على متحد مصالح. بعض كتّاب الحوض الجنوبي يرى، عن حقّ، أن هذه المراجعة الدلالية للمتوسّط كمفهوم إجمالي يتخطّى تعدّد المواريث الثقافية أو التغاير السياسي والديني، هو ابتكارٌ حديث العهد من قبل الضفّة الشمالية، ولّدته أغراضٌ استعمارية أكثر منها علمية [٨].

قد يُقال، للوهلة الأولى، أن أسبانيا تتمتّع بموقعٍ ملائمٍ للغاية لأن تُصاغ في كنفه تصوّرات مركّبة وموضوعية ودقيقة للواقع المتوسّطي. وقد يظنّ البعض أن الأمور لا يمكن أن تكون خلاف ذلك في بلدٍ خضعت جغرافيته وثقافته وصيرورته التاريخية للتأثيرات الوافدة من هذا البحر. فشبه الجزيرة الإيبيرية تقع عند ملتقى المجريين الكبيرين للإتصال على المستوى العالمي : المجرى الأوروبي الإفريقي، المتجه من الشمال إلى الجنوب والذي يجد نقاط ارتكازه في جزر الباليار وألجثيراس، والمتوسّط الذي عبر المحور الاستراتيجي المؤلّف من الباليار وديترويت وجزر الكناري، يصل على ضفتيه الشمالية والجنوبية عالم الشرق الأقصى والمحيط الهندي والمشرقَ بالمحيط الأطلسي. تقع أسبانيا بعيداً من طرق الاتصال القارية، فهي معزولة بسبب جبال البيرينه، لكنّها قريبة جداً من المغرب بفضل مضيق جبل طارق (لا يتجاوز عرضه ١٣ كيلومتراً) الذي استخدم تارةً لمنع عبور بعض الشعوب، وطوراً لتسهيل عبور بعض الشعوب الأخرى. وقد زيّنَ هذا الموقع الملائم، المحاط ببحرين، والذي يعتبر مدخلاً لقارتين، لعددٍ من الشعوب غزوَ أسبانيا منذ العصور السحيقة : الفينيقيون، اليونانيون، القرطاجيون، الرومان، البيزنطيون، العرب، وسواهم.

مع ذلك، فإنّ سهولة تعرّض أسبانيا للتأثيرات الأجنبية، البحرية منها والبرّية، بحكم موقعها، كانت، في الحقيقة، أحد العناصر المكوّنة لتنوّعها الداخلي الرائع. فإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية تاريخية ترقى إلى عدّة قرون من الزمن، وجدنا أنه نادراً ما شكّلت شبه الجزيرة الإيبيرية وحدةً سياسية، بل على العكس من ذلك، لطالما كانت نقطة عبور لكلّ حركات انتقال الشعوب التي اجتازتها من الشمال إلى الجنوب. ومن زاوية نظرِ علمِ تضاريس الأرض، أو من زاوية اقتصادية أو تاريخية، هناك فرق كبير جداً بين خط كنتابريا الساحلي، والجنوب والوسط ومنطقة المشرق. وفي المنطقة التي تؤلّف «القوس اللاتيني»، من الأندلس إلى كتالونيا، يؤدي العالم المتوسّطي دوراً فاعلاً ومهماً. وفيه نعثر دونما مشقّة على بعض السمات المميّزة للحضور المتوسطي، والتي يعدّدها بالتاسار بورسيل (Baltasar Porcel) على النحو التالي :

> «قدرة على ابتكار الصور الحيّة الملوّنة، لعبة موت وبهجة، غلبة نزعة التصنّع والشعبوية، من غارثيا لوركا حتّى أليكسندر مروراً بخوان رامون خيمينيث وغيرهم، أمثال بلا (pla) وفويكس (Foix) أو برداغوير (Verdaguer).» [٩]

بالمقابل، فإنّ المنطقة الكاستيانية، وهي المسرح العريق في القدم للجهد المبذول لغزو المجال الداخلي بين المسيحيين والمسلمين، قد احتفظت حتّى القرن الخامس عشر برسالتها «القاريّة»، تاركةً جزءاً كبيراً من الساحل الأطلسي بين أيدي مملكة البرتغال. وشاءت المصادفة أن يترافق هذا كلّه مع توغّل الأراغون – وهي الغريم الأكبر في شبه الجزيرة – عبر منطقة المشرق اعتباراً من مطلع القرن الثاني عشر، في الوقت الذي كانت تتحوّل فيه برشلونه إلى واحدةٍ من أكبر المدن البحرية للمنطقة إلى درجةٍ وصِفَ معها المتوسّط الغربي، في نهاية القرن نفسه، من قبل مدوّني الأخبار في مطلع العصر الوسيط، بأنه «بحيرة كتالانية». مع حلول القرن الثاني عشر غدا التاج الكتلاني الأراغوني قوّةً

متوسّطية. ويعود ذلك إلى عددٍ من العوامل. أولها، موقعه الجغرافي الممتاز، وثانيها، تضاؤل الضغوط الإسلامية على شبه الجزيرة على أثر معركة نافاس دي تولوسا (١٢١٣)، ومن ثمّ تدني القدرات البحرية الإسلامية، وثالثها، قدرات اقتصادية قائمة على النموّ الاقطاعي [١٠]. وقد توطّدت أولى بوادر هذا التوسّع – احتلال مايوركا على يدِ خايم الأول عام ١٢٢٩ الذي تبعه احتلال بلنسيا عام ١٢٣٨ ومرسيا عام ١٢٦٦ – عبر ضمّ صقلية (١٢٨٢) وتدخّل مرتزقة «العصبة العظمى» في بيزنطية والذي أدى إلى إنشاء الدوقيات الكتلانية في اليونان بين ١٣٠٢ و١٣٩٠ [١١] كما أدّى إلى غزو سردينيا (١٣٢٣) ونابولي (١٤٤٢). وفي غضون قرن الذروات الكتالانية هذا، والذي يمتدّ من أواخر القرن الرابع عشر حتّى أواخر القرن الخامس عشر، تبنّت الممالك الأخرى في شبه الجزيرة الإيبيرية مشاريع توسعية واتجهت نحو المحيطين الأطلسي والهندي، فنجم عن ذلك ابتعادها شبه النهائي عن النطاق الجغرافي المتوسّطي : هكذا انطلقت البرتغال لاستكشاف الساحل الإفريقي، ولإقامة محميات تجارية في الهند، واقتربت من الساحل الأميركي عبر البرازيل. أما كاستيّا فقد بلغت ذروة قوتها بتدمير الأندلس، كما تزعّمت خطّةً لتوحيد شبه الجزيرة، وحقّقت لها موطىء قدمٍ لا أكثر في إفريقيا حيث كانت تتنافس مع المملكة اللوسيتانية. لكنّها بالمقابل، أكّدت طموحاتها «القارية» باتحادها مع الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدّسة، والأهمّ من ذلك كلّه أنها كرّست جهودها لغزو واستيطان القارة الأميركية المكتشفة حديثاً.

انطلاقاً من مقدّماتٍ تاريخية وجغرافية على هذا القدر من الاختلاف، ليس مستهجناً أن نلاحظ غياب التصور المتوسّطي الواحد في أسبانيا. لقد نجم عن الإسقاط الخارجي المتعدّد والمتناقض للمناطق الأسبانية، واندراجها الإشكالي في واقعٍ وطني متجانس عددٌ من التصوّرات للمتوسّط تتميّز، ما خلا بعض الحالات الخاصّة التي سنأتي على ذكرها في حينه، بسلسلةٍ من

العناصر المميّزة. أولاً، الانتماء الجمعي المحدود إلى هذا الرمز: فعلى الضدّ من بلدانٍ أخرى في المنطقة، لم يكن تصوّر المتوسّط حاسماً في بناء الهوية الوطنية الأسبانية، ووحدهم سكان المنطقة المشرقية يعتبرون بحرنا عنصراً جوهرياً من عناصر صورتهم الجمعية. ثانياً، إسقاطٌ جغرافي محدود، جزئي وغير ناجز، سواء من الناحية المكانية أو التاريخية أو الاجتماعية أو الثقافية. فالأسبان لا يشعرون بأنّهم معنيون إلاّ بشؤون المتوسّط الغربي الذي يعتبرونه بيئتهم الأليفة: من سردينيا إلى جبل طارق، ومن سبته إلى الجزائر. ثالثاً، الطابع المحدود لتطلّعاتهم التي يعرّفونها، إشكالياً، بحسب مصالحهم المباشرة كالتوسّع الاستعماري أو الدفاع الوطني. ولا تعتبر أسبانيا المتوسّط ككيان إجمالي موضوعي أو كفكرة مجرّدة إلاّ عندما يمثل في أفقها مفهومٌ أو مشروع امبريالي ما: مثلاً أثناء توسّع المغابربيين في فترة الصراع الجيوسياسي مع السلطنة العثمانية، وخلال الأمثلة «المتوسطية» التي مارسها النوسنتيون أو خلال فترة العولمة الحالية. رابعاً، لأسبانيا فهمٌ سلبي، جوهرياً، للمنطقة، وخاصّة الجزء الجنوبي منها الذي تراه مجالاً متخلّفاً يقف موقف المتفرّج حيال المدّ الإمبريالي الأوروبي أو كمصدر للمخاطر التي تهدّد السيادة الوطنية (الأتراك، البربر، المورسكيون، أهل الريف المغربي...). وأخيراً، هناك فرق كبير بين إدراك الحوض المتوسّطي في الثقافة الشعبية وذاك الذي نصادفه في الصياغات، الأشدّ تعقيداً على الدوام، للحركات السياسية أو الاقتصادية أو الجمالية الفنية، أو الثقافية أو الأدبية التي حاولت المؤسسات أن تفرض خطاباتها «المتوسّطية النزعة» – المتماسكة، المفهومة، أو المتناقضة – عبر الزمن.

المتوسّط باعتباره خطراً خلال العصر الحديث

إنّ الصورة التي تبنيها جماعة لذاتها تتحدّد، بصفةٍ عامة، كنقيضٍ أو تجاوزٍ لجماعة منافسة. وإذا استعدنا فكرةً صاغها

فيكتور موراليس لثكانو يستند فيها إلى النظرة الأوروبية للعالم العربي الإسلامي، أمكننا القول إنّ المتوسّط مثّل الغيرية السلبية أو الصياغة المثالية للعالم المتخيّل السّامي (١٢).

غير أنّ الغيرية كانت، في سياق مرحلةٍ معيّنة، مكوّناً أساسياً لتشكّل أسبانيا التاريخي. كان المتوسّط عنصراً حاسماً لتطوّر الأندلس، لأنه أتاح لها أن تحافظ على صلاتها وأن تتواصل مع منابعها الثقافية الموجودة في الشرق وفي القارة الإفريقية (١٣). وكان أوَج إعادة الفتح في النصف الأخير من القرن الخامس عشر تجسيداً للفصل الفعلي بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي اللذين بقيا، حتّى ذلك الوقت، متلاصقين. لقد جرى هذا الانقسام، جوهرياً، على الصعيد الثقافي والإيديولوجي، وعلى مستوى أنماط العيش والتفكير لدى الأوساط الرسمية (١٤). ومع ذلك حافظت الثقافة الشعبية للمشرقيين وللأندلسيين على أثرٍ من الثقافة الموركسية و «الأندلسية»، وهو الأثر الذي ستمتدح قيمته في أواخر القرن الثامن عشر من قبل النقد المنقّب. كانت تلك التوفيقية الثقافية قد أنتجت، حتّى القرن الخامس عشر، سلسلةً من المظاهر التكافلية في الفنّ والأدب. غير أنّ الانحطاط العسكري للمسلمين في القرن السادس عشر، والمستوى المتدني للموريسكيين وتهميشهم الاجتماعي قد أدّيا إلى تغيير سلبي للصورة التي صنعها الغزاة المسيحيون لمنافسيهم العريقين (١٥)، لدرجةٍ تحوّل معها الإسلام «إلى خصمٍ حميم» لتلك الثقافة الأسبانية المسيحية ذات التطلعات الهيمنية، من دون أن يصبح ذاك الخصم إكزوتيكياً، بل عصيٌّ على التمثّل ومتعذّر قهره (١٦).

يترافق تغيّر الموقف حيال الإسلام مع تحوّل جغرافي وتاريخي أكثر تسامياً. إذ كما لاحظ بروديل وفيلار، فبدءاً بالعام ١٤٩٢، يغدو الحوض المتوسّطي، وعلى نحوٍ تدريجي، منطقة طرفية لعالم قيدَ التوسّع. فقد أدّى اكتشاف أميركا، والأسلوب البرتغالي في الطواف البحري حول إفريقيا، إلى إزاحة المحور التجاري

والسياسي العالمي باتجاه أوروبا. وقد سرّع ذلك، على سبيل المثال، في أفول كتالونيا كقوة بحرية لأن الملاحة في الشرق أصبحت مستحيلة بسبب تعاظم قوة السلطنة العثمانية. كما أدّى انتقال نشاط خطوط التجارة إلى الأطلسي وبروز الدول الأمم الكبرى وما تبديه من رغبةٍ في المركزة، إلى إضعاف مصادر الثروة والسلطة. وبدءاً بذلك العصر، تصبح «النزعة الأطلسية» في نظر أوروبا مرادفاً للزخم التوسّعي فيما تختار القوى المتضافرة في المتوسّط تدعيم المواقع التي أحرزتها استعداداً لمواجهة مرحلة طويلة من «حرب المواقع».

لقد كبح عامل الجذب لمنطقة المتوسّط في جنوب أوروبا مسار التوحيد التاريخي للقارة القديمة، طيلة ألف عام تقريباً. وفي الوقت الحاضر، وجّهت أوروبا أنظارها إلى الغرب والشرق، متبنية، وعلى نحوٍ تدريجي، صورة قارةٍ صاغت هويتها انطلاقاً من التوسّع خارج تخومها الجغرافية الطبيعية. غير أن المتوسّط كان منذ مطلع القرن السادس عشر، ساحةً لمعركة سياسية ودينية بامتياز خاضتها الإمبراطوريتان العظميان: السلطنة العثمانية وسلالة النمسا. وكانت إقامة حدودٍ أسبانية، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر (احتلال سبته عام ١٤١٥، ومليله عام ١٤٩٧، ومزار الكبير عام ١٥٠٥، ووهران عام ١٥٠٩، وبوجيا وطرابلس عام ١٥١٠، والقصر الكبير عام ١٥٧٨) أشبه بحملةٍ تليق بالقرون الوسطى وتحقّق غاياتٍ اقتصادية (إقامة محميات تجارية وحماية طرق التجارة من هجمات القراصنة واللصوص) وعسكرية (تشكيل «درعٍ» وقائية متقدّمة في وجه التوسّع العثماني) ودينية (قتال الكفّار)[١٧]. غير أنها كانت تعني أيضاً، لا بل في المقام الأول، إعادة اكتشاف قارة وإعادة اكتشاف المسلمين بوصفهم «أعداءً حميمين»[١٨]. وقد أدّى استكمال هذه المواجهة التي دارت في شبه الجزيرة طيلة ثمانية قرون من الزمن، إلى تأجيج المنافسة مجدداً مع البرتغال وإلى تفاقم المسألة الموريسكية (ثورة البخاراس بين عامي ١٥٦٨-١٥٧١)؛ كما

كانت لها تبعات مماثلة، من حيث الأهمية، على الضفة الأخرى من المتوسّط الغربي مع بروز سلالة توحيدية (سلالة السعدي) في المغرب، أو السيطرة التركية على الجزائر (١٥٢٩) وطرابلس (١٥٥١) وتونس (١٥٥٤) [١٩].

خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر اللذين تميّزا برفض وحذر متبادلين، كوّنت أسبانيا صورةً نمطية لشمال إفريقيا. وكان من شأن هذه الصورة أن تكون سلبية، كما في البلدان الأوروبية الأخرى، وليدة الحملات الصليبية، لكنّ الأحكام المسبقة هذه تفاقمت في شبه الجزيرة بسبب حداثة عهدها بإعادة الفتح، تاريخياً، وبسبب القرب الجغرافي الذي كان يولّد نزاعات مسلّحة ذات تأثير مماثل لتأثير حربٍ حديثة غير مدمّرة. لقد شكّل القرنان السادس عشر والسابع عشر «عصراً ذهبياً» لأعمال القرصنة المتوسّطية التي يرقى تاريخها، في المنطقة الكتالانية والأندلس، إلى مطالع العصر الوسيط. فبدءاً بغزو الجزائر على يد بربروسّ في العام ١٥١٧، ومنذ استعادة التجارة الإقليمية نشاطها مع وصول البضائع الأميركية، عمّت القرصنة مدن الشمال الإفريقي، بين البحارة المايوركيين، وبين الممالك المسيحية المعادية للسلالة النمسوية، إلى حدّ أصبحت معه أكثر الأنشطة المربحة في المتوسّط على الصعيدين السياسي والاقتصادي. والواقع أن التمييز بين لصوص البحر والملاّحين المستقيمين لم يكن يوماً بالأمر اليسير باعتبار أن كلّ مركب صيد أو مركبٍ تجاري قد يتحوّل، بحسب الظروف، إلى سفينة قراصنة. وقد خلّف الشعور اليومي بخطر ماثلٍ مصدره البحر أثره العميق في ثقافة المشرق، وخاصّة في متخيّل المايوركيين الزاخرة بذكريات الهجمات البربرية (لقد نهب بربروس ماهون في العام ١٥٣٥ وثيوداديلا في العام ١٥٥٨) وليالي العمل الشاق (تشييد أبراج المراقبة، لمواجهة هذه الآفة) ومآثر القراصنة المحليين [٢٠].

مما لا شكّ فيه أن عصور الأزمة والانحطاط هي العصور

الفضلى للتأمّل في مصدر الرؤى المتبادلة [٢١]. لقد كانت معركة لبانتي (١٥٧١) هي بمثابة بدء الأفول الذي شهدته الإمبراطوريات الكبرى المحاذية للمتوسّط. فمنذ أواخر القرن السادس عشر بدأ اهتمام أسرة هابسبورغ يتركّز على الأطلسي، وعلى الأخص أميركا وشمال أوروبا، فيما كرّس الأتراك جهودهم باتجاه بلاد فارس، وهو الأمر الذي جعل المتوسّط، إثر هدنة العام ١٥٨٠، بحراً يتمتّع بهدوءٍ نسبي. وإذ أُحيلت «مسألة المتوسّط» إلى شاغلٍ ثانوي، غدا الإسلام عدواً من الدرجة الثانية، حتّى لو بقي المتوسّط الجنوبي يعتبر، في سياق الصدام بين الديانتين التوحيديتين، نقيض أوروبا، و«ضدّ المسيحية» [٢٢]. في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت الحرب المحتدمة بين الإمبراطوريتين المتخاصمتين تُترجمْ بنزاعاتٍ متفرّقة تتخللها فترات هدنة وما يستتبعها (تغيير ولاءات، تبادل أسرى، أعمال قرصنة ولصوصية مستمرّة، إلخ...) كانت تسهّل ترويج الصور المتبادلة المشوّهة بالأحكام المسبقة وبالتعصّب الديني، أو بالجهل لا أكثر. فقد كان السجال المعادي للإسلام يستهدف في البداية الشرقيين المسلمين، ثمّ سرعان ما استهدف الأتراك ومن ثمّ المغاربة. وبموازاة صورة «المتوحّش» الأميركي، ظهرت الصورة النمطية «للمور» maure (التي تشمل الموريسكي كما المحمدي) غير المتمدّن والذي كان يُعبّر عن الشكّ في طبيعته البشرية. وكان المسلمون، حيال الأفارقة القدماء أو اليونانيين أو الرومان الذين جعلوا متماهين مع فكرة الجمال، يمثّلون الفقر والإختلاط الشهوي، والتخلّف الخاص بعالم إسلامي جامدٍ وفي حال من النكوص، هو نقيض عالمٍ مسيحي كان، في تلك الحقبة، في بداية انطلاقته الرأسمالية.

وكما تُستنسخ الغيرية السلبية في صورة راهنةٍ، حلّت كراهية التركي في العصر الحديث محلّ كراهية المور في القرون الوسطى. ولا شكّ في أن المصدر الفعلي للرؤية المشوّهة الرائجة للإسلام يكمن في روايات أسرى الحرب السابقين وسقوط القسطنطينية. وقد

انتهى المطاف بكلمة «تركي» التي كانت تطلق على كلّ رعايا سلطان القسطنطينية، أن اكتسبت، خلال تلك القرون، معنى سلبياً مربطاً بفكرة الشرّ والعنف المطلق. ومع أفول القدرات البحرية العثمانية، انتقلت هذه الرؤية السياسية والدينية للعدو لكي تطبّق على البربرية، وإن كانت تسمية «تركي» التي تطلق على المور والموريسكي والبربري والمسلم، قد بقيت تتردّد لقرون في مدوّنات الرحالة الأسبان الذين عبروا المتوسّط الجنوبي والشرقي. ويمكن أن نعثر عليها خصوصاً في El viaje a Turquía y odisea de Pedro de Urdemalas (١٥٥٧-٥٨)، وفي Comentarios de la embajada que de parte del rey de España Felipe III hizo al rey Xa Abas de Persia لغارثيا سيلفا فيغويروا (١٦٦٧) الذي كان يدعو إلى تجديد الحضور المتوسّطي لأسبانيا تحت شعار «أيها الأسباني عُد إلى حيث اعتدت أن تكون»، و «رحلات في إفريقيا وآسيا» لدومينغو باديا (علي بك العباسي)، الصادر للمرّة الأولى في باريس عام ١٨١٤، أو Viaje interior de Persia للقنصل آدولفو دي ريبادينيرا (١٨٨٠).

خلال القرن الثامن عشر انتقلت القوى الاقتصادية والسياسية نهائياً إلى المتوسّط فيما تفكّك هذا الأخير بسبب نشاط القوى النابذة لعالم كانت السلطة قد هجرت ضفافه، فتحوّل عندئذ إلى نطاقٍ حدودي جديد، إلى منطقة طرفية هامشية معزولةٍ عن النمو الرأسمالي [٢٣]. في أسبانيا ورثت أسرة بوربون، على نحوٍ ما، مشروع أسرة هابسبورغ المتوسّطي القائم على التصدّي للتوسّع العثماني، على الرغم من أن الإمبراطورية التركية كانت منذ النصف الثاني للقرن السابع عشر، في حالٍ من التدهوّر الواضح. ومع بداية عهد فيليب الخامس، طرأ تغيّر جذري. فقد شهد التصوّر الأسباني للمتوسّط تطوراً موازياً للتدهور العسكري لأسبانيا إثر حرب الخلافة (١٧٠١-١٧١٤). كما أن بروز القوة البحرية الإنكليزية في النطاق الغربي (احتلال جبل طارق عام ١٧٠٤، ومينوركا عام ١٧٠٨) والخسارة التدريجية لمواقع القوّة

الإفريقية التي كانت تشكّل الخطّ الحدودي الجنوبي الإسباني للمتوسّط (حصار سبته، سقوط وهران والقصر الكبير عام ١٧٠٨، ثمّ إعادة احتلال وهران عام ١٧٣٢ والخسارة النهائية عام ١٧٩١)، قد شكّلا حدثين بارزين في هذا التدهور الذي كانت نتيجته الطبيعية في النطاق الشرقي ظهور أسبانيا في صورة تركي أوروبا العملاق، و«رجل أوروبا المريض». ليس من المستهجن إذاً أن تكون هاتان القوتان، خلال النصف الثاني من القرن، في حالة «هدنة عملية». هكذا وبموازاة تراجع روحية الحملات الصليبية الأسبانية، بدأت تنشأ بين القوتين بوادر علاقات قانونية : معاهدة سلام وتجارة بين أسبانيا والمغرب (١٧٦٧)، ومعاهدة سلام وصداقة وتجارة مع السلطنة العثمانية (١٧٨٢)، ومعاهدة سلام وصداقة وتجارة مع المغرب (١٧٩٩).

بين الافتتان بما هو إكزوتيكي والعَزْم الرسالي : الاستشراق والاستفراق (africanisme) الأسباني في القرن التاسع عشر

لم يبق المتوسّط بمنأى عن التنافس الذي دار بين القوميات الأوروبية على حساب السلطنة العثمانية الآفلة. وبدءاً بأواخر القرن الثامن عشر، إثر الحملة الفرنسية على مصر تحديداً (١٧٩٨–١٨٠٢)، تفاقم الصدع القديم بين أوروبا والساحل الآسيوي الإفريقي وولّد عداوةً وحقداً ما زالا محتدمين إلى اليوم[٢٤]. وسرعان ما انفصلت، تدريجاً، الديناميكية التاريخية للساحل المتوسّطي الجنوبي عن ديناميكية الساحل الشمالي، ورضخت بلدان المغرب لأن تلقى مصير أراضي الصحراء الجنوبية، أي التقسيم الاستعماري الذي سيبلغ ذروته خلال مؤتمر برلين ١٨٨٤–١٨٨٥. إنّ التفاوت القائم بين الشمال والجنوب يعود، في أغلبه، إلى مسار التصنيع الأوروبي. ففي مطلع القرن التاسع عشر، شهدت الحركة الاقتصادية في حوض المتوسّط، نمواً استثنائياً

برغم الحروب القارية : إذ سجّل مرفأ مرسيليا تزايداً في حركته بلغ ٢٥ ضعفاً بين عامي ١٨٣٤ و١٩٥٠ ، وخاصة في سبعينات القرن التاسع عشر إثر افتتاح قناة السويس. وقد أتاح هذا الحدث ذو الدلالة الرمزية البالغة للمتوسّط أن يستعيد بعضاً من دوره التاريخي، وبأن يغدو مجدداً خطاً مهمّاً للملاحة التجارية. بيد أنه لم يكن سوى منطقة ترانزيت لحركة تجارية استعمارية متجهةٍ نحو المحيطين الهندي والأطلسي. ليس هناك أدنى شكّ في أنّ مشروع دو لسيبس (de Lesseps) لم يتح للمنطقة استعادة حيويتها الغابرة، لكنّه حثّ القوى الأوروبية على السعي لاستعادة مواقعها الاستراتيجية على الساحل المتوسّطي. وقد ترجمت هذه الهجمة الاستعمارية الكبرى بأن أدخل إلى المنطقة المفهوم التصحيحي القائل بـ«توازنٍ متوسّطي» المستوحى من «التوافق الأوروبي» الذي صيغ خلال مؤتمر فيينا (١٨١٤–١٨١٥) والذي كان الغرض منه تنسيق المصالح القارية للقوى العظمى، وعلى الأخصّ حماية الموقع الممتاز لقوة من خارج المتوسّط كبريطانيا العظمى التي عمدت في المنطقة، طوال القرن الثامن عشر، إلى توطيد محطات «طريقها الإمبراطورية» نحو الهند.

بين الحملة البونابرتية وبداية الحرب العالمية الأولى، غدا المتوسّط «بحيرةً أوروبية» برغم أن اقتسام النفوذ جرى على نحوٍ غير متكافئ. في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وبينما كانت فرنسا وبريطانيا العظمى تعملان على تدعيم مواقعهما في أرجاء المنطقة كافّة باستخدام قوتهما العسكرية والسياسية والتجارية والعلمية، شهدت أمم شبه الجزيرة الشمالية الكبرى – أسبانيا، إيطاليا، اليونان – أزماتٍ وطنية حادّة (حروب ضدّ الاستبداد، حروب استقلال وتوحيد) حدّت من آفاق نفوذها في المتوسّط الجنوبي والشرقي لأكثر من قرنٍ من الزمن [٢٥]. وعلى الرغم من أنّ هذه الأمم الثلاث قد أثارت مخيّلة أولئك المبدعين الكبار للأفكار النمطية، أي مخيّلة الرحّالة الرومنطيقيين، فقد كان لحرب الاستقلال اليونانية (١٨٢١–١٨٢٩) صدىً متميّز في أوروبا

على الصعيد الثقافي، بمعنى أنها (أي هذه الحرب) أيقظت تلك النزعة المحبّة للهلينية لدى جيلٍ من الكتاب والفنانين المتمرّدين، أكثر فأكثر، على قيود جماليات الكلاسيكية الجديدة. وأدّى ما بات يسمّى بـ «المسألة الشرقية»، أي الساحة الجيوسياسية الجديدة التي كانت قيد التشكّل مع التفكّك البطيء للإمبراطورية التركية بفعل الجهود المتضافرة للقوى الأوروبية والقوميات الجديدة التي تنشأ عنها، إلى إحياء فضول الرحالة مجدداً والنهم العلمي للخبراء، على الرغم من أن هذه المسألة قد سهّلت رواج الصورة عن متوسّط شرقي مضطرب ومتخلّف وغريب تولّت الرومنطيقية تعريفه بأنه نقيض العالم الغربي. شرق حالم، أسطوري، قديم ومتشبّث بالخرافات كما وصفه شاتوبريان في «الرحلة من باريس إلى القدس» (١٨١١)، أو كما وصفه واشنطن إيرفنغ في مؤلفيه Crónica de la conquista de Granada (١٨٢٩) و Cuentos de la Alhambra (١٨٣٢)، أو فيكتور هوغو في «الشرقيات» (١٨٢٨)، متعارضاً مع غرب واقعي وتقدمي وعقلاني مزعوم.

كما في مجمل مراحل التوسّع الإمبريالي، لم تلبث الطاقة المتميّزة للبلدان الأوروبية على بسط نفوذها السياسي والاقتصادي أن انعكست مباشرةً على المجال الثقافي. وما من شكّ في أنّ الحدث الذي أطلق تنامي الدراسات الاستشراقية تمثّل في بروز الإمبريالية وترسيخ الهيمنة البورجوازية على الجزء الأعظم من العالم الإسلامي [٢٦]. وليس ما يدعو إلى العجب أن تتكاثر في أوروبا الوسطى والشمالية، الدراسات الفلسفية والأتنوغرافية والجغرافية والأركيولوجية والتاريخية حول الحضارات الإسلامية وحضارات الشرق الأقصى، لأنّ هذا الاستشراق ذا الأغراض العلمية المزعومة كان يتيح تحصيل المعارف العملية والأساسية لتسهيل التوسّع الاستعماري لهذه الأمم. فبحسب كتاب (إدوارد) سعيد المثير للجدل، لم يُسهم هذا الاستشراق المنقّب والموحي، على الإطلاق، في فهمٍ أو في تقدّم الشعوب التي كانت موضوعاً لملاحظة

المستشرقين، بل إنه، على العكس، كان خطاباً للسلطة يحاول أن يصنّف البلدان الإسلامية في فئات فكرية ماهوية جامدة لكي يسهّل إخضاعها للتوسّع التمديني الأوروبي [٢٧]. وعلى هذا النحو صيغَت، شيئاً فشيئاً، ثمّ راجت كلّ المصوّرة التي يحتاج إليها الغزاة الجدد لكي يعرّفوا أنفسهم بالمقارنة مع هذا المشرق البربري، الإكزوتيكي، الفاتن الذي أوجده الرومنطيقيون. جمعٌ بين «أفكار شرقية» (استبداد، تألق، قسوة، لاعقلانية، لاأخلاقية، انحطاط، سرّ، عادة الكذب، إلخ...) وبين استيهامات (حريم، عبيد، غلمان، أمراء مترفون، حجاب، رقصٌ إكزوتيكي، شهوانية...) جديدة أو مستلهمةً من التراث الجاهلي الذي حوّلته علوم المرحلة الإمبريالية إلى تحديداتٍ نمطية ذات طابع ثقافي، لا بل عِرقي.

لقد تكيّفت رؤية المتوسّط في أسبانيا القرن التاسع عشر مع سلسلة من التحديدات التاريخية. فطوال القرنين السابع عشر والثامن عشر تحديداً، لم يكفّ الحضور الأسباني في المنطقة عن التقلّص إلى حدّ يمكن معه التأكيد بأن هذا البلد قد انسحب طوعاً من شمال إفريقيا منذ العام ١٧٩١. ذلك أنّ الحرب ضدّ بريطانيا العظمى، في مطلع القرن التاسع عشر (لقد أدّت هزيمة الطرف الأغر عام ١٨٠٥ إلى محوه عن الخارطة لأكثر من قرن من الزمن، بوصفه قوة بحرية متوسطية)، كما الغزو البونابرتي والتقلبات الدراماتيكية لترسيخ النظام الليبيرالي، قد جعلاه كلياً على هامش التوافق القاري. وبانغلاقه على مشكلاته الداخلية، غدت رؤيته الإجمالية للمشكلات المتوسّطية غائمة وغير دقيقة. غير أن هذا كلّه لم يكن عائقاً دون لجوء أسبانيا إلى بعض الخطوات الملموسة والموصوفة. فقد ترجّحت، عملياً، في الفترة ما بين ١٨٣٠ و١٩٠٤ ، بين الخشية والافتتان بمتوسّط غربي باتَ أكثر فأكثر غرابة وبين التدخلات العشوائية في جنوب أراضيها، وخاصّة في المغرب.

إنّ الصعوبات ذات الطابع الداخلي قد تفسّر، جزئياً، واقع أن

أسبانيا ما عادت تنمّي هذا الاستشراق الكوسموبوليتي والعلموي الذي يزدهر في شمال أوروبا. غير أن الحنين لأمجاد الماضي وقصور القدرة على القيام بتدخّل فعال في المتوسّط كانا، في الحقيقة، المنطلقين، منذ القرن السابع عشر، لبروز استشراق حديث يحمل السمة الأسبانية ويُعنى، على نحوٍ حصري تقريباً، بالتراث العربي الإسباني [٢٨]. فمنذ الأعمال الطليعية التي أنجزها خوسيه أنطونيو كوندي أو سيرافين أستيبانيث كالديرون (Cristianos y moriscos - 1838) كانت إعادة تقويم التراث الأسباني/ المسلم، الأندلسي و«الموريسكي»، إنجازاً لتيار الرومنطيقية الليبيرالية في مواجهة التأريخ المحافظ الموروث عن التقليد «المسيحي الوسطيّ» للأب ماريانا الذي سينعت رابطة المستعربين الشبّان بأنهم «كوكبة غزاة حديثين لتاريخنا الكلاسيكي». ففي الوقت الذي كانت فيه نزعة التشدّد والنفور إزاء العالم الإسلامي لا تزال قائمة، كان الأدب الرومنطيقي يمجّد ويؤلّه العدو عبر نوعٍ من الموروفيليا (محبّة المور) الأدبية (بحسب غويتيسولو) التي نماها، من بين آخرين، أمثال خوسيه ماريا بلانكو وايت وخواكيم دي مورا وخوسيه دي أسبرونثيدا أو الدوق دي ريفاس. غير أن السجالات التاريخية أو الأدبية لم تكن لتؤثّر في التصوّر الراسخ في ذهن الجمهور، وخاصة الشرائح الاجتماعية من البورجوازية ذات المزاعم الأدبية، عن هذا المجال المتوسّطي الممتدّ من المغرب إلى تركيا، والذي ينعكس في أجواء الروايات والأعمال المسرحية ذات القيمة التاريخية المزعومة. كما كان هذا المجال بارزاً في النزعة الإكزوتيكية التي تزخر بها المقالات والرسوم التي تزيّن المطبوعات ومنها، على سبيل المثال، Alrededor del Mundo، و Museo de las Familias، و Seminario Pintoresco Español، و La Ilustración Española y Americana، و La Ilustración Artística o La Ilustración de España.

في غضون النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم يلبث هذا «الاستشراق الوافد من قوة أوروبية آفلة» [٢٩]، الرومنطيقي

والأندلسي الهوى، أن تحوّل، تدريجاً، إلى «استفراق» (الانكباب على الدراسات الإفريقية)، أي إلى حنين إلى الحضور الأسباني في شمال إفريقيا في مطالع العصر الحديث. وكان الحدث الذي أطلق هذا الشاغل الجديد هو غزو الجزائر العاصمة في عام ١٨٣٠، وهو تاريخ شروع أسبانيا في انتهاج سياسة تدخّل، وتبنّي سياسة متوسّطية على غرار القوى العظمى، وخاصّة فرنسا وبريطانيا العظمى. فكما يشير غابرييل ماورا، بدءاً بهذا التاريخ

> «ما عاد بإمكاننا الزعم بأن المسائل الإفريقية هي حصراً من شأن أسبانيا.» [٣٠]

الواقع أن المستوطنين الأسبان الجدد كانوا يسألون أنفسهم إذا لم يكن من واجبهم التدّخل مباشرةً في المغرب قبل أن يبدأ تقسيم شمال إفريقيا وقبل أن يصبح جبل طارق، نهائياً، تحت سيطرة القوى العظمى. يفسّر هذا الذهان التوسّعي صدور مؤلّف سيرافين أستيبانيث كالديرون Manual del oficial en Marruecos ، عام ١٨٤٤، وهو مرشدٌ لغزو المملكة العلوية لاقى إقبالاً أكيداً من قبل القرّاء، وتزامن نشره مع الحادث الدبلوماسي الأخطر في النصف الأول من القرن : أي اغتيال القنصل الأسباني دارمون في مازاغان (في المغرب، واليوم تسمّى الجديدة) [٣١].

إنّ خسارة المستعمرات الأميركية والحرب الكارلية (نسبةً إلى أنصار كارلوس) والاستقرار السياسي النسبي الذي ولّدته العشرية المعتدلة (١٨٤٣–١٨٥٤) قد مهّدت الطريق لانبعاث المشاريع التوسّعية التي اشتهرت بها كاستيًا مطالع العصر الوسيط والتي أهملتها السياسة الأطلسية لأسرة هابسبورغ. فقد أشار السياسي المعتدل دونوسو كورتيس (Donoso Cortes) ، عام ١٨٤٧، في البرلمان، إلى أن هذا التوسّع ينبغي أن يتمّ باتجاه إفريقيا والبرتغال بغية أن تفرض على هذه الأخيرة سيطرة معنوية كتمهيد للاتحاد الإيبيري (وهو الأمر الذي كان يدعو إليه بحماسة بالغة الحزبُ الديموقراطي)، ولكي تمتلك أسبانيا في إفريقيا نفوذاً مادياً

يكون منطلقاً لوجودها الاستعماري.

«تقوم سياستنا على بسط سيطرتنا باتجاه هذه المنطقة. تلك كانت السياسة التاريخية لأسبانيا، وتلك كانت السياسة القومية، والسياسة الموروثة عن التقاليد والتاريخ، وتلك كانت سياسة الملوك الكاثوليك، وسياسة الكاردينال ثيسنيروس، وكذلك كانت، إلى حدّ ما، سياسة شارل. تلك هي السياسة الأسبانية (...) فإذا كان بسط سيطرتنا في إفريقيا هو، في نظرنا، علامة هيبة، فإن الحيلولة دون استئثار أي شعبٍ ببسط السيطرة على سواحل إفريقيا هو، في نظرنا، مسألة بقاء.» [٣٢]

وإذ يولي أنظاره شطر وهران، مبدياً خشيته من قيام لوي فيليب بتوسّعٍ محتمل باتجاه فاس والساحل المتوسّطي (وهي خشية يبرّرها احتلال جزر شافاريناس عام ١٨٤٨)، كان دونوسو يشير إلى أن الثقافة الفرنسية والثقافة المغربية لا تلتقيان :

«ما من قاسم مشتركٍ وما من تفاعلٍ قابلٍ للاستمرار بين الحضارتين الفرنسية والإفريقية.»

فبينما تبدو فرنسا قادرة فقط على الإبادة بسبب من تنافرها مع العالم الإفريقي، كان من شأن أسبانيا التدخّل بوصفها القوة القادرة على الاستيعاب. ولكي يؤكّد زعمه هذا كان دونوسو يلوّح بذريعةٍ لطالما تردّدت في عصر الأنوار، وهي الذريعة القائلة «بإفريقية» الأراضي الواقعة فيما وراء جبال البيرينيه، ويعتبر أسبانيا الجسر المثالي لتغلغل الحضارة الأوروبية داخل القارة. وكان يشير إلى وجود تكاملٍ جغرافي وطبيعي (المناخ) بين شبه الجزيرة والمغرب، وإلى أنّ في أنماط الحياة السائدة فيهما عناصر انتقالٍ تتبدّى على الصعيد الأخلاقي والعسكري (الغيريليرو الأسباني الذي هو خليط من الجندي الأوروبي والمحارب الإفريقي) والديني (النزعة القدرية للمسيحية الأسبانية تحتلّ موقعاً وسطاً بين الكاثوليكية الفلسفية الفرنسية وبين الروحانية الإسلامية).

أمّا الغرناطي خايير مارتينيث دي لا روسا

(Javier Martinez de la Rosa) (١٧٨٧–١٨٦٢)، مؤلّف العمل التاريخي المستوحى من العالم الموريسكي «Aben Humeya» (وعرض على المسرح للمرّة الأولى في فرنسا في العام ١٨٣٠)، والذي كان وزير دولة بين عامي ١٨٤٤ و١٨٤٦ ، فقد أكّد في هذه الجلسة البرلمانية بأنّ

> «أسبانيا مدعوة لممارسة ضغوط حاسمة على هذه القوى التي تسعى إلى فرض سيطرتها في إفريقيا، وهي الوسيلة التي يمكن لأسبانيا من خلالها أن تمارس نفوذها (...) الذي لا يستهان به. أيها السادة، مقدّر على المتوسّط أن يكون، عاجلاً أم آجلاً، مسرحاً لأحداث عظيمة (...) ولمناسبة هذه الأحداث ستتمكّن أسبانيا من ممارسة نفوذٍ حاسم إذا عرفت كيف ترتّب أوضاعها الداخلية، وإلاّ يكون من الجنون المطبق مجرّد التفكير في مثل هذه الأمور». [٣٣]

أمّا الحجج التي قدّمت لتبرير هذه السياسة التوسّعية فكانت ذات طابع تاريخي وحقوقي (الوجود على الضفة الإفريقية الشمالية الذي يرقى إلى عهد الملوك الكاثوليك) واستراتيجي (أمن أراضي شبه الجزيرة والمضيق، وهو أمر حيوي للمصالح الأسبانية عبر البحار، ومن أجل سلامة جزر الكناري وسبته ومليله)، واقتصادي (ضرورة استئناف التجارة الخارجية المتضرّرة من خسارة المستعمرات الأميركية) وأخيراً، سياسي (قناعة غائمة بقدرات أسبانيا الاستعمارية والتبشيرية) [٣٤]. لذلك عمد السياسي أنطونيو كانوفاس ديل كاستيلو (١٨٢٨–١٨٩٧) إلى التأكيد مجدداً، في العام ١٨٥١، على الخط الذي ينبغي اتباعه في هذه المنطقة :

> «هناك قاعدة تاريخية لاحظناها، عبر القرون، في المغرب الأقصى تقرّر بوضوح أن الشعب الغازي الذي سيتمكّن من فرض سيطرته على إحدى ضفتي مضيق جبل طارق لن يلبث أن يبسط هيمنته على الضفّة المقابلة. وهذه القاعدة سوف تطبّق. وإذا لم تتمتع أسبانيا بالشجاعة الكافية أو الذكاء الكافي للتصدّي لبقية الأمم في مسألة السيطرة على الشواطىء المتاخمة، فسيأتي يومٌ

نفقد فيه استقلالنا وتزول قوميتنا إلى الأبد. هناك، في الجهة المقابلة، تواجهنا مسألة حياة أو موت ؛ فلا ينبغي أن ننسى ذلك أو أن نحرف أنظارنا عنها ؛ هناك قرار يفرض علينا نفسه، وإذا لم نتخذه، فسوف يتخذه آخرون، سوانا، بطيبة خاطر. إنّ حدودنا الطبيعية تقع في "جبال" أطلس وليس في القناة الضيّقة التي تصل المتوسّط بالأطلسي ؛ فالأمر كلّه درسٌ تركته لنا روما العصور القديمة.» [٣٥]

إنّ مثل هذه الإرادة الاستعمارية التي تمثّلت غاياتها بمنافسة فرنسا ومعاودة تأكيد الحضور الأسباني على الساحة الدولية والدفاع، بفعالية، عن الحدود الطبيعية لصون الاستقلال الوطني، ما كانت لتحجب شعوراً بالدونية أو بالضعف. ففي سياق الرغبة في تقليد السياسة الاستعمارية الأوروبية سعياً لأن تغدو أمةً حديثة، أظهر البرنامج الاستعماري الأسباني شعوراً «تجديدياً» حاداً سوف يزداد تعاظماً في نهاية القرن. هذا فضلاً عن أن أسبانيا كانت مقتنعة بأن البلاد لم تكن تمتلك، في تلك الفترة، القدرات الكافية للشروع بسياسة توسّعية طموحة ومستقلّة في الجنوب. لذلك هيّأت نفسها لاستغلال ما تمتلكه من تركة الصفات النبيلة، وهذا الموقع الاستراتيجي لكي تكبح مطامع فرنسا وإنكلترا.

لقد كانت الحملة المغربية (١٨٥٩-١٨٦٠) التي شنّت في لحظة انفتاح أبواب المتوسّط مع الشروع في أعمال شقّ قناة السويس والسيطرة الفرنسية على لبنان، هي الخطوة الأبرز في سياسة التدخّل الأسبانية في هذه المنطقة خلال القرن. وجعِل هذا العمل الذي وصف بأنه «مجد أسبانيا الوحيد خلال القرن» بمثابة «حربٍ مقدّسة» في الوقت الذي شبّه فيه غزو تطوان بمعارك أخرى ضدّ الكفار، وبملاحم حربية مثل لاس نافاس دي تولوسا، وتونس ووهران وليبانتي. إنّ هذا «الإحياء» الدّعاويّ للصراع الدهري مع الإسلام والذي تمكن ملاحظته في أسلوبِ Romancero de la guerra de África (١٨٦٠) القديم البالي،

والـذي تمّت صـيـاغـتـه في حـلـقـات الماركـيـز دي مـولـيـنس (de Molíns) الأدبـيـة مـن قـبـل شـعـراء رومـنـطـيـقـيين مـن طراز سـابـيـدرا (Saavedra) وهـارتـسـنـبـوش (Hartzenbusch) وآلـكـالا غـاليـانو (Alcalá Galiano) وكامبوامور (Campoamor) وبروتون دي لـوس هيريـروس (Bretón de los Herreros)، كـان مـحاولـةً لاستعـادة الملحمة القروسطية بغية ترميم الكبرياء الوطني الذاوي إثر ثلاثة عقودٍ من الحظّ العاثر. والواقع أن صورة الحرب تجاوزت صورة المواجهة العادية مع أهل الريف واكتسبت وظيفةً مزدوجة : معاودة تأكيد الوحدة الوطنية التي زعزعتها الحرب الأهلية بين ١٨٣٣و١٨٤٠ (لقد أدّى المتطوعون الباسكيون والكتالانيون دوراً مهما في الحملة) عبرَ تعيين عدو خارجي، وتجديد صورة أسبانيا من طريق العودة إلى المتوسّط ونشر أسطورة التقدّم الغربي في الأراضي المغربية (٣٦).

على الرغم من الشعور بالكبرياء الذي سادَ الرأي العام والذي ولّده وعي الناس لقدرة أسبانيا على شنّ حربٍ توسّعية، وهو الأمر الـذي كـان يـؤكّد، مـن نـاحـيةٍ أخرى، القدرة التصريفية للنزعة القومية للمؤسسات الليبيرالية الجديدة، فإنّ هذه الحرب لم تأتِ بمكاسب كبيرة. لقد أتاحت معاهدة تطوان في ٢٦ نيسان/أبريل ١٨٦٠ رسمَ حدود الحاميات الأسبانية، والاعتراف بحق أسبانيا في حماية وتجنيس عدد من رعايا السلطان المسلمين واليهود ووضع لائحةٍ بـالـتعويضات الاقتصادية. غير أن حرب إفريقيـا أطلـقت مجدداً الـرعـايـة الرسمية للاستشراق، ومـنحت الشرعية لاستفراقٍ بقي حتّى نهاية القرن يلقى إقبالاً شعبياً لا يُدحَض، كما تشهد على ذلك الاحتفالات المتكرّرة بانتصار عام ١٨٦٠.

بين انـتصـار ١٨٦٠ ونـهـايـة الـقـرن، تـخـلّـى روّاد الـدراسـات الإفـريـقـيـة الأسـبـان عن الـبـعد الـرومـنـطيـقـي وتسلّحوا برؤية أكثر ذرائعية للمسألة الاستعمارية. فاهتزّت صورة الشرق الخاضع منذ قرونٍ لتشويه الدعاوى الرسمية، وجرت مراجعتها، جزئياً مع بروز

الظاهرة الإمبريالية على مستوى التصوّرات الثقافية [٣٧]. لقد تغلغلت التجربة الإفريقية في صلب الثقافة الأسبانية عبر انبعاث الدراسات المستعربة وعبر ظهور النزعة الإكزوتيكية التصويرية التي كان رائدها خينارو بيريث فياميل (Jenaro Pérez Villamil). وقد بلغت هذه الأخيرة ذروتها خلال حربِ إفريقيا مع ماريانو فورتوني (Mariano Fortuny)، وعرفت فترات مجدها في مطلع القرن العشرين مع ماريانو برتوشي (Mariano Bertuchy). أمّا على الصعيد الأدبي فقد أتاحت «النزعة المغربية» لدى كتاب أمثال بيريث غالدوس (Aita Tettauen) وبيدرو أنطونيو دي ألاركون (Diario de un testigo de la guerra de África) وغاسبار نونييث دي آركي (Recuerdos de la campaña de África)، رواجَ الصورة المزدوجة والقابلة تماماً للانعكاس للمور الدموي والمتعصّب وللبني سرّاجي (abencerrage) الذي، نظراً لنبله الفطري، تشفّ عنه أوجه قرابة روحية، لا بل عرقية، مع «العنصر الأسباني» الخالد. وعلى الرغم من أن التصوّر الفولكلوري لم يتغيّر طوال هذه السنين، ترسم هذه الأعمال صورةً أكثر إيجابية للعالم العربي، غير أنّ الانحطاط سيصيبها مجدداً بدءاً بأواخر القرن. وتبلغ هذه الظاهرة ذروتها خلال حرب الريف بين ١٩٠٩ و١٩٢٦.

لم يبدأ العمل على تحديد الخطوط العريضة لسياسةٍ إفريقية إلاّ مع عهد «الإصلاح»، خلال الربع الأوّل من القرن، وهي السياسة التي سيعمل بها حتّى العشرينات. فقد سوّت معاهدة مدريد المعقودة في ٣ تموز/يوليو ١٨٨٠ والمبرمة في طنجة في الأول من أيار/مايو من العام التالي، مسألة الحقّ الأوروبي في حماية رعايا الريف، وأعطت زخماً جديداً لحركة الاستفراق الأسباني. وفي تلك الفترة أنشئت الـ Escuela de Arabistas ، أي معهد المستعربين الحديث بمبادرةٍ من فرنشيسكو كوديرا (١٨٣٦-١٩١٧)، وهي أيضاً الفترة التي عُيِّنَ فيها أحد أعضاء هذه الرابطة المعروفين، ويدعى أدواردو سابيدرا (Eduardo Saavedra)، مؤلّف البيان التأسيسي للجمعية الأسبانية لاستكشاف إفريقيا (١٨٧٧)،

والعضو الفاعل في جمعية المستفرقين والمستوطنين الأسبان (١٨٨٣) وأحد المبادرين إلى إنشاء «المراكز التجارية الأسبانية المغربية» بدءاً بالعام ١٩٠٤، رئيساً لإحدى أكبر المؤسسات المؤيّدة للسياسة التوسّعية في إفريقيا : الجمعية الجغرافية الملكية (Real Sociedad Geográfica).

في غضون هذه الحقبة جرى فَصلٌ شبه تام بين النشاطين الإستشراقي والإستفراقي : ففي حين كان المستشرقون ينكبّون على تمحيص النصوص القروسطية أو على تدريس اللغة العربية القديمة، كان المستفرقون ينكبّون على مسائل التبادل التجاري أو الاحتياجات العسكرية الملحّة [٣٨]. أمّا الباقي، أي الاستعراب الأسباني، فقد بقي أسير نزعته العرقية بعيداً عن التيارات الرئيسية للاستشراق الأوروبي وتظاهراته كمؤتمر المستشرقين الذي نظّمت حلقته الأولى في باريس عام ١٨٧٣. وصادف انعقاد أبرز هذه اللقاءات العلمية مع فترة التوسّع البورجوازي في منطقة المشرق الذي كانت الغاية المضمرة منه فرض رؤية متمدّنة للثقافة الغربية عبر تلطيف صورة الجشع التي توصف بها القوى الاستعمارية [٣٩].

إثر الاحتلال الفرنسي لتونس عام ١٨٨١، أجبر احتدام المنافسة الإمبريالية، على المستوى العالمي، أسبانيا على الخروج من تحفّظها الدبلوماسي والبحث عن حلّ مختلفٍ عن التفاهم التقليدي بين فرنسا وإنكلترا. وكان الغرض من الميثاق الموقّع، على نحو غير مباشر، من قبل موريت (Moret) مع الحلف الثلاثي عبر الاتفاق مع إيطاليا المعقود في ٤ أيار/مايو عام ١٨٨٧، والمجدّد سرّاً عام ١٨٩١، هو الحفاظ على الوضع القائم في المتوسّط وضدّ أي احتلال محتمل لطرابلس أو المغرب. كان الميثاق يهدف إلى عزل فرنسا، واضعاً التفاهم الإيطالي الأسباني في مواجهة الغزو الفرنسي المرتقب لشمال إفريقيا، وإلى إبعاد روسيا عن المضائق من خلال عمل منسّق بين النمسا – هنغاريا وتركيا.

في غضون نهاية القرن الحرجة تلك، التي تفاقمت خلالها المناوشات بين القوى العظمى ذات المصالح في المنطقة (حادثة فاشودة – التي أصبحت كُدُق اليوم، في السودان – سوِّيَت بموجب معاهدة ٢١ أيار/مايو ١٨٩٩، إثر تخلي فرنسا عن غزو قسمٍ من النيل)، عمد أحد روّاد الحركة «التجديدية» ويدعى آنخيل غانيفيت Ángel Ganivet (١٨٦٥–١٨٩٨)، إلى التذكير في كتابه الصادر عام ١٨٩٩ بعنوان Idearium بالأهمية الحيوية للوجود الأسباني في المتوسّط. كان غانيفيت يلاحظ التنافر الجذري بين الطموحات التوسعية لكاستيّا القرون الوسطى، الموجّهة نحو الساحل الإفريقي، وبين طموحات الأراغون التي تتجه جوهرياً نحو المتوسّط والشرق. ووصف استعادة جبل طارق بأنها مشروع ينبغي ألاّ يعني سوى الأسبان، لكنّه اعترف بأن السيطرة البحرية الإنكليزية تمثّل عاملَ استقرار إقليمي لا يمكن استبداله إلاّ بالتحييد الكامل للمتوسّط أو بتبني سياسة توازن بحري بين القوى الحاضرة في المنطقة [١٠]. أمّا بشأن الموقف الذي ينبغي اتخاذه حيال مسألة إفريقيا الشمالية، فيلاحظ غانيفيت أنه

> «عندما يجد بلد ما نفسه مهتماً، فعلياً وعلى نحوٍ إيجابي بقضيةٍ ما، على غرار اهتمام أسبانيا بالمغرب، فإنّ الإحجام عندئذ يكون ضاراً لأن الإحجامَ في مثل هذه الحال يعني بوضوح إمّا أن البلد المعني يجهل حقيقة مصالحه الحيوية وإمّا أنه على قدرٍ من الضعف يُرغمه على أن يوكل أمر البلد موضوع اهتمامه إلى أيدٍ أجنبية.» [١١]

ولتبرير الخطوة المغربية كان يستخدم عباراتٍ تقليدية مشوبةٍ بحتمية الوازع الجغرافي، وقريبةٍ جداً من تلك العبارات التي استخدمها مستوطنو منتصف القرن التاسع عشر، أو تلك التي كانت الطبقة السياسية تستخدمها في سنوات سِلْمِ الأساطيل (Paz armada).

> «لأسبانيا مصلحة حقيقية، واضحة ولا تحتاج إلى تفسير، في

الاحتفاظ بالأراضي الواقعة عند الجهة الأخرى من المضيق والبعيدة عن العمل السياسي في أوروبا، ولن تحظى هذه المصلحة يوماً بأفضل ممن يسهرون عليها في الوقت الراهن. فإذا استسلمنا لهذه الرغبات التقليدية من دون أن نمتلك، كما اليوم، الوسائل الضرورية لاستكمال عمل الجيش والسياسة، وإذا تمكّنا من فرض نظام حمايتنا على المغرب، فلن نفعل، من دون شك، سوى الإفساح في المجال أمام تجار أوروبا النهمين، وفيما يجني هؤلاء ثمار تغيير السلطة القائمة، فلن نجني، نحن، سوى كراهية الشعب المغلوب الذي سيرى في عملنا السبب الظاهر لكلّ الانتهاكات التي تتعرّض لها مشاعرهم ذات الطابع الاستثنائي وغير المنسجمة، بطبيعتها، مع الحضارة الأوروبية. فلا نكون عندئذٍ سوى عوامل غير واعية لمصالح مضادة لمصالحنا وصنّاع خرابنا بأيدينا.» [٤٢]

هذا هو، برأيه، الباب الوحيد الذي ينبغي أن يبقى مشرّعاً «لكي لا نترك أنفسنا غارقين كلياً في الظلام»، ولكن في رسالةٍ منه إلى أونامونو، يقول غانيفيت إنّ «هذه الخطوة تجري على الضدّ من رغباتي» [٤٣]. وليست روايته «فتح مملكة المايا على يد الفاتح الأسباني الأخير، بيو سيد» (١٨٩٧) سوى محاكاة تهكّمية لهذا المشروع الاستعماري، يسخر فيها غانيفيت من النمط الاستعماري الأوروبي في إفريقيا ومن عجز أسبانيا عن منافسة الأطماع الإقليمية لقوى هذه القارة الكبرى. كما يفضح خداع القوى لذاتها عبر اعتقادها بأن الحضارة الأوروبية متفوّقة (ضدّ فكرة التقدّم) بسببٍ من سبقِها المادي. ويتطرّق لمسألة استعادة جبل طارق بوصفها مسألةً لا تعني إلاّ الأسبان، لكنّه يعترف بأن التفوق البحري الإنكليزي كان بمثابة عامل استقرار للمنطقة لا يمكن استبداله إلاّ بالتحييد المطلق للمتوسّط أو بتبني سياسة توازن بحري بين القوى الحاضرة مباشرةً في الحوض المتوسّطي [٤٤].

من جهته تنطّح خواكين كوستا Joaquin Costa (١٨٤٦- ١٩١١) لأن يكون داعيةً «للرسالة التمدينية» المنسوبة إلى القوى

الأوروبية في بلدان العالم الثالث. إذ تولّى خلال المؤتمر الأسباني للجغرافيا الاستعمارية والتجارية الذي عقد عام ١٨٨٣، شرحَ حاجة أسبانيا إلى أن تكون جزءاً من أوروبا ومن التاريخ المعاصر، واقترح استكشاف إفريقيا واستعمارها من أجل «الإسهام في نشر وترسيخ الحضارة الأوروبية». ولم يكن هذا حائلاً دون تعبيره، في مناسباتٍ أخرى، كتلك التي أتاحها اجتماع جمعية المستفرقين في مسرح الحمرا في مدريد عام ١٨٨٤، عن حماسته للتراث الثقافي الإسلامي :

> «لقد كان المغاربة معلّمينا، فحُقَّ لهم منا الاحترام ؛ كانوا إخوتنا ونحن مدينون لهم بالمحبّة ؛ كانوا ضحايانا فمن واجبنا تعويضهم عمّا جرى بالكامل. وبالتالي فإنّ سياستنا في المغرب ينبغي أن تكون سياسة عوضٍ، سياسة قُربٍ، وسياسة إصلاح [...] وما ينبغي أن يكون عليه طموح أسبانيا، هو أن تسعى عبر عملها، وبوساطتها، وليس بعملِ أو وساطة أي أمة أخرى، إلى تجديد المغرب كلياً، وإلى أن يتمكّن من إدراج المطالبة بسبتة ضمن برنامج مُثُلِه الوطنية، كما ندرج نحن في مُثُلنا الوطنية المطالبة بجبل طارق [...] إننا نكوّن فكرةً خاطئة عن المغاربة، خاطئة بمقدار ما كانت خاطئة الفكرة التي كوّنها عنّا، نحن، الإنكليز والفرنسيون لأعوامٍ خلت، وربّما اليوم أيضاً... لقد كفّ المغرب عن كونه شعباً شرقياً. وآن الأوان لكي نجعل منه شعباً غربياً، لا بل لنَقُل ذلك، شعباً أوروبياً.» (٤٥)

لقد دافع كوستا، بحسب غونثالو دي راباراث، حتّى النهاية عن قرابة الدم وعن المتّحد التاريخي الأسباني المغربي، إلى درجةٍ « تنزع عنا الأهلية لأداء دور معلّمي ومجددي جيراننا » (٤٦). وفيما بعد، سيرضخ كوستا، في مقالة كتبها في Revista de Geografía Comercial، لاعتبار المغرب ووهران المستعمرة الوحيدة الممكنة لأسبانيا والتي قد تتيح لها، في الأقلّ، أن تكون قوة استعمارية من الدرجة الثانية. ذلك أن أسبانيا لم تعد قادرة، بعد العام ٩٨، على أن تبقي تحت وصايتها وأن تدبّر شؤون

المستقبل الاقتصادي والاجتماعي للمغرب، إلاّ إذا تحوّلت، هي نفسها، أولاً إلى أمةٍ أوروبية.

كان تصوّر السواد الأعظم من الأسبان للمتوسّط، في نهاية القرن، يستند إلى تراكمٍ من الصور الساذجة التي تتشابك فيها كلّ الأفكار المسبقة المعادية للإسلام والموروثة من عهدِ إعادة الفتح (أو الاسترداد)، تحت سمات الإكزوتيكية الشرقية الأكثر نمطية، والمستلهمة من ثقافةٍ كتبية باروكية، المصوّرة منها أو الرومنطيقية. ولكن مهما كان من أمر ما كان، فإنّ شيئاً من هذا لا يمكن إدراجه في صيغةِ رؤية إجمالية للمنطقة، بل على العكس، لأنّ ما كان سائداً ليس «نزعةً متوسطية»، بل الأحرى، وفي الأكثر، «نزعة إفريقية» شعبية كانت سمتها الأساسية المماثلة العنيدة بين إفريقيا والمغرب. لقد سبق لكوستا أن أشار إلى

«أن السياسة الأسبانية في إفريقيا هي، تقليدياً، مرادفة للسياسة الأسبانية في المغرب، وهذا خطأ ظاهر.» [٤٧]

ويذهب غونثالو دي راباراث إلى أبعد من ذلك في تحليل هذا الجهل المطلق :

«إنّ إفريقيا والمغرب يمثلان في نظر الكثيرين أمراً واحداً بعينه. ومثل هذا السلوك نجده في أوساط الشعب، من بين الأشدّ جهلاً، الذين يرون أن هافانا وكوبا، كما مانيلا والفليبين، إنما هي مترادفات جغرافية.» [٤٨]

على أثر كارثة العام ١٨٩٨ الاستعمارية في جزر الكاريبي والفليبين، جرى التشكيك بالنموذج الإفريقي الذي صيغ في ثمانينات القرن التاسع عشر، وجرى معه التشكيك في الصياغات الإمبريالية الخجولة التي آثر ممثلوها (وكان خواكين كوستا المثل الأبرز عليها) الانكفاء على «نزعةٍ تجديدية» داخلية. وبرغم ذلك فإنّ استشراق نهايات القرن حافظ على نكهته التصويرية المشوبة ببعض تذكارات الرومنطيقية المبهمة :

> «يجري نظم المشاهد بوساطة مخيّلةٍ كتبية تأنس إلى الصور النمطية الجاهزة، وإلى التفاصيل الدقيقة ذات الطابع المحلّي: أسواق، مقامٍ ، دراويش، نراجيل، مسلاّت.»(٤٩)

فكما يلاحظ ليلي ليتفاك (Lily Litvak)، إنّ الإطار الشرقي الإكزوتيكي يعيد الاعتبار لسلطانِ النزعة اللاعقلانية الزاحفة على أوروبا في نهايات القرن. ولكن، مع مطلع القرن الجديد، كانت كتالونيا قد صاغت رؤيةً للمتوسّط مختلفة كلياً ومبتكرة.

المتوسّط مرادفٌ للمثال : كتالونيا النوسنتية

من الواضح مما سبق ذكره إنّ صورة المتوسّط التي صاغتها أسبانيا تدريجاً خلال القرن التاسع عشر، كانت مشوبةً بالتجزّؤ والعجز. وتمثّلت مظاهرها الأبرز في الاهتمام العلمي المقتصر على «الإسلام المحلّي» الموروث عن التقليد العربي الأندلسي، والرهان السياسي، المُدرك على نحوٍ أكثر فأكثر وعياً، على استعمارِ مركَز على المغرب، والإبداع الأدبي والفني المتأثّر بعادات الهروب المتمثّلة على، أكمل وجهٍ، بتعاظم الميل إلى «النزوع الإكزوتيكي الشرقي». وقد تضافرت هذه التيارات الثلاثة، على نحوٍ غير تامّ، خلال الحملات العسكرية التي كانت حيوية جداً لصياغة الهوية الوطنية كالحرب الإفريقية بين ١٨٥٩–١٨٦٠، والنزاع في منطقة الريف بين ١٩٠٩–١٩٢٦، مع انشقاقات، في الحالة الأخيرة، كانت على قدرٍ كبير من الخطورة. وقد جرت محاولاتٌ لتعويض غياب خطابٍ واحدٍ، شاملٍ، سابقِ التأثير، عبر ازدهار الرطانة حول الحقوق التاريخية المزعومة التي كانت تضمن «المصير الواضح» لأسبانيا في المغرب. وكذلك الأمر الـ Renaixanca ، الحركة الأدبية والثقافية الكتالونية التي سادت الإمارة في عهد إيزابل الثانية، كانت مشبعةً بالنزعة التاريخية وبالإكزوتيكية الرومنطيقية. وعلى الرغم من مختلف الشهادات المتعاطفة مع حركات حماية الثقافة التقليدية المتوسطية، على غرار الفيليبريج البروفنسالية(٥٠)، بقيت شخصيات أمثال فيكتور بالاغوير

(Victor Balaguer) ومـانـويـل مـيـلا إي فـونـتـانـالس (Manuel Milá I Fontanals) وأنـطـونـيـو روبـيـو إي يـوش (Antonio Rubió I Lluch)، متشبّثة بصحوة «النزعة المغربية» الرسمية، وحافظت على رؤيتها بحرنا كمجال عريق مرادفٍ لعدم الاستقرار، والمغامرة التي لها صلة بالازدهار الكتالوني في مطالع العصر الوسيط.

حتّى مطلع القرن كنا لا نجد أي ذكرٍ «للمتوسّط» بما هو معنى ثقافي واضح. ومع ذلك، فقد شهدت كتالونيا بين العامين ١٨٨٨ و١٩٢٣، تجدّداً للاهتمام بالمتوسّط، واستحال هذا الاهتمام، في العقد الممتدّ بين ١٩٠٥ و١٩١٤، برنامجاً فعلياً لعملٍ سياسي وثقافي يمكن اعتباره، من دون تردّد، بأنّه الأفضل تصوّراً والأشدّ طموحاً في أسبانيا المعاصرة.

وبصرف النظر عن نزعتيهما الجماليتين المتعارضتين، فإنّ التيارين الكبيرين اللذين نقل من خلالهما النشاط الثقافي الكتالاني في تلك الحقبة – أي الحداثي والنوسنتي – قد عبّرا بإخلاصٍ عن طموحات البورجوازية التي كانت تسعى إلى تثبيت موقعها عبر دخولها مجالات السلطة الاجتماعية الجديدة، التي برزت بفضل سياق التصنيع ومسار العمران المُدُني المتسارع والتحديث السياسي والثقافي [٥١]. وشكّلت هذه «النزعة المتوسطية» أحد العناصر المذهبية والاستراتيجية التي وسمت صحوة النزعة القومية الكتالانية إثرَ النشوة التي خلّفها المعرض العالمي لعام ١٨٨٨ في برشلونه [٥٢]. وهي نزعة قومية مكرّسة لتمدين سلوك الجمهور عبر السيطرة التقنية والثقافية، والتي تُسقِطُ تطلّعاتها «الإمبريالية» إلى ما يتخطّى حدود شبه الجزيرة الإيبيرية، باتجاه المشرق ذي التقليد اليوناني اللاتيني.

كما جاءت الحداثية والنوسنتية رداً (إكزوتيكياً وحدسياً فيما يتعلّق بالحداثية، وكوسموبوليتياً وعقلانياً فيما يتعلّق بالنوسنتية) على الظروف ذات الطابع الدولي والمحلّي التي كانت

تكيّف وتحدّ هذه الصحوة «الكتالانية». فمن جهة أدى التدخّل الألماني والأميركي الشمالي في المشكلات الاستعمارية إلى حال من التوتر نجمت عنها الأزمة الإمبريالية التي شهدتها نهايات هذا القرن، والتي كانت تبعاتها (فقدان الأسواق الأنتيلية، وعودة رؤوس الأموال إلى الوطن الأم) حاسمةً في مسار نموّ الإمارة. ومن الجهة الأخرى، كبرياء الكاستياني لجيل ٩٨، الذي كان ردّ فعله عنيفاً على فقدان بقايا الإمبراطورية الاستعمارية عبر تبنيه أخلاقية القيم الأسبانية ومغالاته في تقدير الجمالية «القارية» التي يرمز إليها أمثال آثورين، وماتشادو وأونامونو... إلخ ؛ «بحر داخلي» جُعل أسطورةً أدبية لأمّةٍ كانت تشعر بأنها مبتورة الأفق عبر البحار.

إنّ صور المتوسّط التي صاغتها الحركتان الثقافيتان على قدرٍ كبير من التعارض : فهي مفرطة الحيوية وحسيّة في الحداثية، ومتزنة وعقلانية في النوسنتية. لقد كانت الحداثية، المهجوسة برغبتها في المحاكاة البسيطة للطبيعة وللفطرة ولما هو برّي، ترى المتوسّط كحادثٍ طبيعي تستحقّ مظاهره الحسية أن تُجعَلَ سامية وأن تترجم فنياً، غير أنّها كانت ترى إلى هذا المجال الجغرافي كرمزٍ للمواجهة بين شعوب أوروبا الشمالية أو الجنوبية (وفي مقدار أقل، شعوب الضفاف الشمالية والجنوبية من بحرنا الداخلي) التي سيكون ذكرها شائعاً في البلاغة النوسنتية. هكذا، وفيما كان خوان ماراغال (Joan Maragall) أو بيري كوروميناس (Pere Corominas) يعبّران عن ميلهما لتقشف غوته الكلاسيكي والميراث الهليني للأدب الفرنسي في نهاية القرن، كان أنطوني غاودي Antoni Gaudí (١٨٥٢-١٩٢٦) ينجز الـ «Casa Vicens»، تحفة الاستشراق المعماري الذي كان رائجاً في تلك الحقبة. كان غاودي مقتنعاً أنّه يمثل هذه الرؤية الجمالية للحياة

> «نشعر، نحن أهل بلدان ضفاف المتوسّط، بالجمال أكثر مما يشعر به أهل البلدان الشمالية.»

وأنّ من واجبهم الأخلاقي أن ينقلوا هذا المعنى التشكيلي إلى أعمالهم وإلى بيئتهم. وهو يرى أن المتوسّط كان يمثّل نقطة التوازن بين الأرض والسماء وأنّ مزاياه الطبيعية تُقَوّي – بضربٍ من الحتمية السيكولوجية الرائجة هي أيضاً في تلك الحقبة – الإدراك البصري والأخلاقي لأهله قياساً بسكان المناطق الأخرى :

«الفضيلة هي أواسط الأمور : المتوسّط يعني ما يقع في وسط اليابسة. على ضفافه، معدّل الضياء هو ٤٥ درجة، أي المقدار الأفضل لتحدّد الأجسام ولارتسام الأشكال ؛ وقد أينعت الثقافات الفنية الكبرى بفضل هذا الاعتدال في الضياء الذي يتراوح بين السطوع وبين الخفوت، لأنّ هذين الحدين يعميان الأبصار، والعميان لا يبصرون ؛ في المتوسّط تسود الرؤية الحسية للأشياء التي عليها ينبغي أن يتأسس الفن الأصيل. إنّ قوتنا التشكيلية تمثّل التوازن بين الشعور والمنطق : أعراق الشمال تفرط في تأملها، وتخنق الشعور، وبسبب خفوت الضياء تنتج أشباحاً ؛ أما أعراق الجنوب، فبسبب وفرة الضياء تغفل عن العقلانية وتنتج وحوشاً ؛ فالنقص في الضياء، كما وفرته، يجعلان إبصار الناسِ عسيراً، ويجعلان الذهنَ مجرّداً.

سوف تبقى الفنون المتوسّطية أرفع شأناً من الفنون الشمالية لأنها تنصرف إلى تأمّلِ الطبيعة : فجُلُّ ما تنتجه شعوب الشمال هو أعمالٌ غير جوهرية ولهذا السبب تشتري هذه الشعوب الإبداعات المتوسطية، لكنّها، بالمقابل، مفطورة على التحليل وإنشاء الصناعات...» (٥٢)

وكما قيل في السابق، إن رؤية المتوسّط التي صيغت، تدريجاً، في كتالونيا عند منعطف القرن، لا تنفصل عن «مشروع بلد» تبدو تضميناته السياسية والثقافية واضحة ومترابطة. في المعنى الواسع للكلمة، كانت النوسنتية إسهاماً كتلانياً صرفاً (لكنه ابتكار تزامن مع الجيل الأوروبي النزعة الذي ينتمي إليه أمثال أورتيغا وآثانا في المنطقة الكاستيّانية) في التحدّي التحديثي لبلدان المتوسّط الغربي الأوروبي التي كانت تحلم بتعويض التأخر

التكنولوجي والإمبريالي الإقليمي الذي يفصلها عن الشمال الغربي الأطلسي الكلّي القدرة [٥٤]. سعت النوسنتية إلى بلوغ توازنٍ بين تبني قيمٍ تقنية وسياسية أنكلوساكسونية وبين التمثّل الواعي لقيم متوسّطية في التربية والثقافة، وفي تحسين نوعية الحياة في المدن.

من وجهة نظرٍ سياسية، تبدو النوسنتية ابتكاراً للنزعة الكتالانية المحافظة ممثّلةً بالرابطة (la Lliga)، وهي تشكيل تأسس عام ١٩٠١، كانت غايته المطالبة بالمزيد من الاستقلالية السياسية للنزعة التجديدية المستقرّة في مدريد منذ نهاية القرن، والتي بقيت متشبّثةً بنزعة البوربون المركزية التقليدية، وبضرورة إعادة البناء الوطني. حيال سياسة الانكفاء هذه والانعزال على الساحة الدولية، سعت النزعة الكتالانية المستقرّة في منتدَبة برشلونه ثمّ في المانكومونتات، إلى صياغة برنامج عملٍ جماهيري يؤدي، رمزياً في الأقلّ، إلى فصل كتالونيا عن الصورة المنحطّة لدولةٍ ما زالت تتماهى بموروثات «كاستيّا الريفية» التي جعلها جيل ٩٨ مثالاً [٥٥].

حدّت الموارد الضئيلة، سواء الاقتصادية منها أو المؤسسية، من تطبيق التحرّر الذاتي لمضمار الثقافة. وبوصفه منظراً للنوسنتية، أصبح أوجين دورس Eugenio d'Ors ، أو Xènius (١٨٨٢–١٩٥٤)، المنشّط الكبير للسياسة الثقافية الكتالانية، كما أصبح أيضاً من دعاة التدخّل الفكري في مشاريع الحكومة. ويدين له المتخيّل الكتالاني بأفكارٍ لامعةٍ أغنته هو المتمحور حول المتوسّط الذي أصبح مرجعاً ثقافياً ذا محتوىً هُوَيّ (identitaire) مهمّ في كتالونيا، وما زال مستمراً إلى اليوم.

شكّلت النزعة المتوسطية مفهوماً أساسياً من مفاهيم النوسنتية، وهي راجت بفضل عددٍ من القراءات المتضافرة. لقد مثّلت أولاً ردّ فعلٍ على المفاهيم الرومنطيقية للنزعة الذاتية، وتفرّد العقلانية وحساسيتها، ودعوة لاتباع الذهنية اليونانية اللاتينية

في العالم المدني والفني والأدبي. غير أن الأمر لم يكن مجرّد استعادة تاريخانية لهذا التقليد الكلاسيكي، بل كان أمراً أكثر دقّةً : وهو تبني هيكلية جمالية كان من شأنها أن تطغى على الحكاية الأسلوبية التي طالما سعى وراءها الحداثيون. لقد أوضح دورس في معجمه (Glosari) الصادر في ١١ تموز/يوليو ١٩١١، بأنّ «النزعة الهلّينية والنزعة الكلاسيكية هما أمران مختلفان». هكذا اكتسبت النزعة الكلاسيكية السمات اللازمانية للمبدأ المنظّم العام : مشيئة الرضوخ لسنّةٍ ما، أو لقانون. فغدت مرادفةً للعملِ المتقن الإنجاز، والمعَقْلَن والمتكيّفة مفاهيمه مع النموذج اليوناني اللاتيني. غير أنّ توخّيَ الدقّة هذا لم يكن مطبّقاً إلاّ على الجماليات (الخاضعة لمبادىء النسق، والبنية والتراتب التي نجدها في الرطانة الفاشستية) وكان يعكِس ما أسماه دورس «بالوضوح المتوسّطي»، أي علّة تصويرية، حسية، مناقضة للنزعة الفردية الاستبطانية التي كان يعتبر أنها سمة الحضارة الشمالية. وقد استعرض الرسام الكتالاني الأوروغوايي الأصل، خواكيم تورّيس غارثيا Joaquím Torres García (١٨٧٥–١٩٤٩)، وهو ملهم كبير آخر للحركة، على نحوٍ واضحٍ هذا الطابع المزدوج، التقليدي والجامع، للنزعة الكلاسيكية النوسنتية.

> «ينبغي للثقافة اليونانية اللاتينية أن تكون هي تراثنا. فبجمعنا بين فن ماضينا وبين الحاضر لخلق فننا المعاصر، ينبغي لنا أن نختار كلّ ما يذكّر بهذه الثقافة وما ينسجم معها. ليست الأشكال هي التي ينبغي أن نحاكيها أو أن نحييها، بل الروحية الحالّة فيها : صفاء السريرة، البهجة، الضياء، اللون، الإحساس المرهف بالمقادير، وبطابعها التشكيلي، أي، باختصار، كلاسيكيتها.» [٥٦]

نزعة كلاسيكية مرادفة للذكاء، للحسّ السليم وللنزعة الإنسانية. وهي ثوابت من شأنها، إذا أعمِلت على غرار عبقرية الشعوب في البلدان المتوسطية، أن تبرّر، في حدّ ذاتها، وبسببٍ من القيم المتأصّلة التي كانت تمثّلها، إرادة الرجوع هذه إلى الأصول

واستحضار نسقٍ علويّ وأصيل. إذاً لم تكن النوستالجيا إلى اليونان وروما مجرّد تأسّفٍ على الماضي بل سعي أنطولوجي لذاك «العصر الذهبي» غير المحدّد الذي كانت خلاله الطبيعة والثقافة مترابطتين على نحوٍ وثيق [٥٧].

ذات يومٍ أشار دورس إلى

«أن أحد الواجبات الأساسية هو الإسهام في إضفاء الطابع المتوسّطي على الفنّ الراهن.»

كانت هذه النزعة المتوسطية النوسنتية وثيقة الصلة بالمنافحة عن التراث الكلاسيكي اليوناني واللاتيني، غير أنها منافحة نشيطة تقوم في الأكثر على تجديد الأشكال التقليدية وليس استعادتها كما هي. فبحسب توريس غارثيا :

«يعود لنا الحقّ، نحن القادرين على تنمية الفنون أكثر من فناني الأمم الشمالية، أن نحيي في تمامها، عبر أعمال حديثة متفرّدة، وعلى غرار كلّ ما هو حيّ، الثقافة اليونانية الرومانية المتألقة. نحن، ورثة برابرة الشمال المتمتعين بإرادة هائلة وإن كانوا مولّدي فنٍّ كئيب وبشع.» [٥٨]

كان المؤرّخ والسياسي جوسيب بيلا إي فورغاس Josep Pella i Forgas (١٨٥٢–١٩١٨) هو الذي اقترح في عام ١٩٠٦، تسمية «كتالونيا اليونانية» التي اعتبرت إحدى الأساطير الرمزية للنوسنتية، وفي الوقت الذي كان فيه دورس يعلّق على الأطروحة التي دافع عنها الناقد الفرنسي ألبير تيبوديه (Albert Thibaudet) في «صور اليونان»، والتي تقول إنّ بحر إيجه كان ليمارس أثراً لا يستهان به على ذهنيات المفكّرين الهلّينيين الأبرز. أكّد كسينيوس Xènius (دورس) الذي تضمّنت رؤيته تطابقاً بين بحر اليونان وبين بحر كتالونيا، أنّ المشهد المتوسّطي لطالما مارس تأثيراً في البشر، منذ العصور القديمة الكلاسيكية وحتّى يومنا هذا :

«ألا تشعرون أنّ في تطبيقنا فحوى هذه الصفحة المذهلة والموحية – كان يقول كسينيوس - Xènius إلى أي حدّ يكتسب مشهدنا «قيمةً إنسانية» ؟ ألا يعني بحر كاداكويس Cadaquès، على سبيل المثال، ما تعنيه أيضاً أبواب كاداكويس Cadaquès ؟» [٥٩]

على الرغم من المسارين المختلفين، كان يبدو أن استعادة الصورة الكلاسيكية للمتوسّط جارية بقوة في إيطاليا وفرنسا في مواجهة النزعة الانطباعية للعشرية الأخيرة أو للنزعة الرمزية لنهاية القرن هذه. الواقع أن النوسنتية حافظت على روابط واضحة مع المدرسة الرومانية التي كان رائدها منذ العام ١٨٩١ جان موريياس، والتي عُدَّ من بين المدافعين عنها مشاهير من أمثال موريس دو بليسي وريمون دو لا تايليد (Raymond de la Tailhède) وشارل مورا (Charles Maurras). وقد أعاد هذا الأخير، في نهاية القرن، صياغة الفكرة القائلة باللاتينية الفرنسية التي استعيدت، بدءاً بالستينات، من قبل أنصار النزعة الجنوبية الفرنسية، جاعلين منها الفكرة الرئيسية في مذهبهم القوميّ التام الذي كان له أثره الكبير على النخبة الثقافية والسياسية الكتالانية في مطلع القرن [٦٠]. ولكن بصرف النظر عن هذا الاسترداد من قبل النزعة القومية الفرنسية، كانت النزعة المتوسطية تمثّل الوحدة المعنوية لكلّ شعوب المتوسط، بدءاً باليونان، ثمّ روما وصولاً إلى الدول القروسطية التي حافظت عليها. كانت النوسنتية، بوصفها نزعة إنسانية جديدة موروثة عن التراث الكلاسيكي للـ Renaixenca ، ردّ فعلٍ على «الضبابية الجرمانية» للحداثة ممثّلةً بالبارسيفالية، «النزعة الشمالية» أو النزعة الرمزية التي كان يجسّدها فاغنر (Wagner)، وإيبسن (Ibsen) ومايترلنك (Maeterlinck) (وذهب دورس في معجمه عام ١٩٠٦ إلى حدّ التأكيد أنّ «هناك، أحياناً، مقداراً من الوحي في عبارة واحدة لهوراشيوس يفوق ما تحتويه مسرحية كاملة من مسرحيات إيبسن»). وعلى الرغم من أنّه دعا إلى «متوسطية» جمالية وفلسفية تحتفظ بصلةٍ وثيقةٍ بالثقافة

الفرنسية والإيطالية، فقد كان دورس من دعاة الجرمانية مثل معظم المثقفين الأسبان المنخرطين في مسار تحديث البلاد عبر الأوربة (وكان المثال على هذا خوسيه أورتيغا إي غاسيت). إنّ النزعتين المثالية والإنسانية المتعاليتين للإصلاح الكلاسيكي الذي دعا إليه غوته من فايمار، قد استعيدا بوضوح في المشروع النوسنتي الذي أبدى، بالمقابل، إزدراءً أولمبياً إزاء الصلات الجمالية والأخلاقية الوافدة من جنوب المتوسّط. ولم يعد نتاج الإسلام يوصف، كما في السابق، بأنه «إكزوتيكية شرقية»، بل كان عرضةً للإزدراء بمجمله باعتباره غير متطابق مع الثقافة «الممتازة» الناشئة والنامية في المنطقة الشمالية من بحرنا.

> «قد يكون عربي على حقّ. ولكن لا يُعقَل أن يكون "على حقّ تماماً". لا يمكن لعربي أن يكون على حقّ تماماً لأنه عربي. وأقصد بذلك أنه كائن على حدةٍ، معزولٌ وشاذٌ عن إنجاز الثقافة، وأيضاً عن كلّ الإنسانيات التي تجد جذورها في التعاون السحيق بين القوى التوحيدية الكبرى للتاريخ كافةً، قوى اليونان، وروما، وكتالونيا، وعصر النهضة، وفي التعاضد بين كلّ الأشكال الحية والمستمرّة لروحية الغرب (...) «أن تكون على حقّ»، أن تكون على حقّ تماماً يعني، بعبارة أخرى، الاشتراك في العقل، أو، والأمر سيّان، الاشتراك في الثقافة، ومواصلة إنجاز التراث اليوناني الجوهري.» [٦١]

إنّ المثالية المتوسطية التي دعت إليها النوسنتية لا تتوصّل إلى صياغة وإعادة صياغة الأساطير الكبرى، لكنّها سعت إلى إيجاد السمات الجوهرية المفترضة للإنسان المتوسطي. لقد كانت النوسنتية نتاجاً للدراسات حول الأعراق والثقافات التي أنجزتها الأنتروبولوجيا بدءاً بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر. إذ جهد المختصّون بالمتوسط في إقامة البرهان على التأثير الأوروبي في التشكّل الإتني للشعوب المحلية، أو بذلوا ما بوسعهم للتدليل على وجود «عرقٍ أصليّ متوسّطي» يؤكّده استقلاله عن الشعوب الآرية والسامية [٦٢]. وانطلاقاً من الدراسات الأنتروبولوجية، جرى

التشديد على أصول كتالونيا وتطوّرها بوصفها كياناً على حدةٍ لكنّه وثيق الصلة بالمحيط الثقافي والإتني للمتوسّط الغربي. كان جوسيب م. باتيستا إي روكا (Josep Ma Batista i Roca)، شدّد على أهمية المرجعية المحلية الواسعة للدراسات الأتنوغرافية :

> «إنّ العقبة الوحيدة في الدراسات الأتنوغرافية تتأتّى من استحالة العمل على مناطق محدّدة من دون التخلّي، بسبب ذلك، عن عدد من الخيارات التي من شأنها أن توفّر حلولاً لمشكلاتٍ عديدة. هكذا، لا نستطيع أن نمحّص مشكلات شبه الجزيرة متغافلين عن انتمائها إلى ثقافة المتوسّط الغربي. بحيث أن مقارناتنا ينبغي أن تجرى، خاصةً مع إيطاليا، ومع جزر الشمال، وجنوب إفريقيا وجنوب فرنسا.» [٦٣]

إنّ عبارة «عرق» التي تتردّد كثيراً على لسان اللاتينيين الفرنسيين كردّ على «عبقرية الشعب» الجرمانية، قد أعيد استخدامها من قبل دورس، ومن وجهة نظر ثقافية محضة، عبر شخصياتٍ تاريخية مثل رامون يول (Ramón Llull) وهو أحد أبرز ممثلي الإسقاط الرسالي الكتالاني في المتوسّط في القرن الثاني عشر، وخايمي الأوّل (Jaime 1)، «الملك الإمبريالي» الكبير الذي كان المبادر إلى التوسّع الكتالوني الأراغوني في المشرق، والذي كان، بحسب دورس، أفضل من مثّل، على المستوى الأخلاقي والمادي، «الترسيمة المركّبة لعرقنا». وإن كان يتخلّى عن الإشارة إلى أن القيمة النموذجية للعاهل لا تقاس لا بأصله ولا بطبعه، بل بأفعاله :

> «ملكنا كان عظيماً، يشير قائلاً، لأنه أنجز وحدة كتالونيا، ولأنّه أثّر على العالم وعلى شؤون العالم بأفعاله. وطننا كان عظيماً لأنه كان موحداً، لأنه كان إمبراطورية.» [٦٥]

كما استعان دورس بمثالات بشرية أولية، كأسطورة عوليس مقابل أسطورتي دونكيشوت وتريستان [٦٦]. غير أن هذه النزعة لتشخيص المثال المتوسّطي، المرتبطة بالنزعة القائلة بالحتمية

الإتنية والتي سادت نهايات القرن، قد بلغت ذروتها في مؤلفه «La Ben Plantada»، الذي نشر في صحيفة الرابطة La Veu de Catalunya، خلال صيف العام ١٩١١. وفي معجمه المستلهم من «حديقة بيرينيس» لموريس باريس (١٨٩١)، حيث الحبكة هي أقلّ ما يصنع قيمة الكتاب (إمرأة شابة، تدعى تيرين، تغوي بأناقة حركاتها ورقّة صوتها كلّ الشبّان في أحد المعسكرات الصيفية) يعدّد دورس السمات الموضوعية والمحددة للعرق المتوسطي.

«يبلغ طول "la Ben Plantada" متراً وخمسةً وثمانين. ومن القدمين حتّى الخصر، متراً وخمسةً وعشرين : ستين سنتمتراً من الخصر حتّى قمّة الرأس. غير أن هذا التفاوت في المقاسات لا يحجب المقاسات المثالية لباقي أجزاء الجسد (...) النحر وافرٌ هلّيني، مفرطٌ بعض الشيء بحسب ذائقة العام ١٩٠٩، لكنّه يتلاءم ومعايير الدُرجات المتحرّرة، الفضفاضة، الكلاسيكية والمفرطة في تناسقها للعام ١٩١١ (...) اليدان (...) عريضتان غليظتان، النحر، فضفاضٌ بالكبرياء لا يخلو من شبهةِ تعبيرٍ بادٍ (...) وإذا كانت حركة "Ben Plantada" تتقدّمها الموسيقى، فإنّ عينيها تغضيان من سطوة سيليستيا، ربّة علم الفلك.» [١٧]

إنّ هذه الصيغة لعنصر «المؤنّث الخالد»، المصقول بنزعةٍ تعقّلية كلاسيكية، لم تكن طفيفة الأثر في مجمل التصوّرات النوسنتية. فعلى غرار تصورات مثالية أخرى عن نساءٍ متّسماتٍ بقيم الخصوبة، وصفاء السريرة والقوة الماثلة، على سبيل المثال، في الفن الفاشستي أو النازي، كانت صوراً حيّة لثقافة، ولتقليدٍ، ولشعورٍ قوميّ متوسّطي من شأنه أن «يبعث الحماسة في الجمهورية الكتالانية الفتية» التي أنيطت بها مهمّة غرس الجوهر الخالد لبحرنا الذي رأى فيه دورس «أفضل البحار لأنّه بحر الاعتبار» [١٨]. فمنذ صدور «La Ben Plantada» حتّى العام ١٩١٤، كان المتوسّط صورةً حاضرةً في أعمال دورس. كان المرجع الأسطوري والمعيار الجمالي للحُسنِ المجرّد أو لبقاء عرق. غير أنّ

نزعة إضفاء الطابع المتوسّطي قد غدت أيضاً، في غضون الحرب العالمية الأولى، مصدراً لسجالات سياسية كما يتضح من المواجهة بين الثقافة اللاتينية والثقافة الجرمانية بعد التنديد «بالعدوان الألماني على المتوسّط»، والمطالبة بسيادته لأسباب سلالية.

«حيثما يستطيع البشر ارتداء مجرّد نسيجٍ من الكتّان، سوف يسود إلى الأبد الإنسان المتوسّطي. البرابرة يتقاتلون اليوم لكي يحظوا بالسلطان المطلق، والثروات الأوفر، وجلود الدبّ الفاخرة. ولكن، غداً، من سيمتلك جلود الدبّ الفاخرة هذه سوف يدرك كم أصبحت بين يديه هباءً، ذلك أن البشر الذين خبروا الحياة السويّة، سيؤثرون – وقد بدأوا يؤثرون – ارتداء أنسجة الكتّان.» [٦٩]

لقد طغت أيضاً النزعة المثالية المستوحاة من النزعة المتوسطية على معنى التمدّن. فالمتوسّط كان في ذلك الوقت أفقاً أسطورياً، في حين أن المدينة كانت تبرز، كما الإطار المفضّل لمشروعٍ حكومي، بوصفها كياناً منتجاً لإنجازاتٍ اقتصادية واجتماعية وسياسية. وكان لهذه المراجعة تأثيرها، في وقتٍ معاً، على المدينة وعلى سكانها. ففي مواجهة النزعة الفردية الأنكلوساكسونية، واستلاب الرعايا الذي تمارسه ملكيّات أوروبا الجنوبية، جرت المطالبة بالوازع الأخلاقي لنموذجٍ جديدٍ للمواطن يكون حلاً وسطاً بين demos (الشعب) اليوناني، وبين إنسان عصر النهضة النخبوي، ويكون هجيناً بين السياسي والمثقّف والمهني الذي يُعلي لا من شأن العمل المتقن وحده بل يعلي أيضاً من شأن الحكمة والاعتبار. هكذا شاعت صورة المدينة كمهد لهذا التمدّن استناداً إلى مَثَلِ الساحة في اليونان القديمة والمدينة الدولة في عصر النهضة. وفي تلك الحقبة بالذات أجريت أعمال تنقيبٍ مدروسٍ لآثار أمبورياس على يد جوسيب بويغ إي كادافالش (Josep Puig i Cadafalch)، كما نشرت أعمال الأب بوش جيمبيرا (Bosch Gimpera) التي لعبت دوراً حاسماً في الشروع في إنشاء مديرية الحفريات الأثرية (Servei d'Excavacions) ومتحف الأركيولوجيا في برشلونه (Museu d'Arqueología de Barcelona) [٧٠]

شكّلت هذه الصياغة النظرية لفكرة المدينة بالمعنى الجمالي والثقافي، إحدى الموضوعات الأكثر استخداماً من قبل دعاة النوسنتية : خاومي بوفيل إي ماتيس، كارليس ريبا، جوسيب كارنر، جوسيب بيخوان، وعلى الأخصّ أوجينيو دورس [٧١]. فبالنسبة لكسينيوس Xènius، المدينة «هي شخصٌ سياسيّ حيّ» و «عمل فنّي سامٍ» ؛ هي مجال لاندماج الفرد الاجتماعي، وأساس لإعادة البناء الوطني الكتالاني الذي ينبغي أن ينطلق من مدينة / جمهورية ليبلغ ذروته في الإمبراطورية المتوسطية . مدينة مساوية للدولة، كيان إلهي حيّ ، ومهدٌ للحضارة . وكانت برشلونه، بطابعها الكوسموبوليتي ، ساحةً مثالية لاستقبال وتثمير الميراث اللاتيني ، غير أن هذه المحاولة لإعادة بناء الهوية انطلاقاً من مُثُلٍ يونانية رومانية لا تنحصر في النطاق المتوسّطي لأنها ألهمت مدناً صناعية أخرى في أسبانيا الشمالية كمدينة بيلباو، المقرّ الرئيسي لتلك المدرسة الكلاسيكية الأخرى آنذاك : Escuala Romana del Pirineo [٧٢].

إن هذا التطلّع التوسّعي للتمدّن الكتالاني، في مجمله، يقودنا مباشرة إلى السمة المميزة الأخيرة «للنزعة المتوسطية» النوسنتية : وهي الإمبريالية الثقافية التي تطمح للتحوّل إلى توسّع فعلي والتي يقارنها بعض المؤلفين بالانبعاث الكلاسيكي والمتوسطي لأنظمة حكمٍ أخرى محاربة كنظام نابوليون أو موسوليني [٧٣]. وقد أكّد دورس، في وقتٍ مبكرٍ جداً، أن المتوسّط «يستعدّ لمشاريع بطولية» :

> «عادت سماؤنا لتسطع بكوكبة الآلهة وأنصاف الآلهة وذاكرتنا تستنير بمآثرهم. والأمر هنا يتعلّق بالوحي الأسمى في الحياة الدينية الحديثة، بمأثرةٍ هائلةِ المعنى ينبغي إنجازها، «إضفاء الطابع المتوسطي» على الإصلاح، لا بالمعنى البروتستانتي، الشقاقيّ و «المنافي للفنّ»، للكلمة، بل بالمعنى الكلاسيكي، الإمبريالي والمؤلّه للجمال الشكلي.» [٧٤]

عمد دورس، منتهزاً قراءته النقدية لأوبرا «Emporium» (إمبراطورية)، التي قدّم عرضها الأوّل على مسرح ليتشيو في مطلع العام ١٩٠٦، إلى اقتراح برنامج إمبريالي ورد ذكره في أطروحته الجامعية لنيل شهادة الدكتوراه في الحقوق التي كان عنوانها: Genealogia del Imperio. Teoria del Estado-Héroe (١٩٠٥)، والتي فيها أناط بكتالونيا الاضطلاع بمهمّة تاريخية: - أن تقود - «باسم كتالونيا وأسبانيا العظمى» (per Catalunya i l'Espanya Gran) - كـ«شعبٍ عظيم» وكـ«روما الجديدة»، الأمم الإيبيرية الأخرى نحو تكريس الإمبراطورية المتوسطية.

«إمبراطورية... أمبورياس... اتساع أفقٍ بأكمله يلوح أمامنا عندما نتلفظ بهذا الاسم. إنه أفق أزرق عليه يبسط المتوسّط، أمّنا، صفاءه العميق. آهٍ! يا متوسط، يا متوسّطنا. فجأةً تستيقظ روحك على أنغام الموسيقى! يا للحظة! لا يضاهيها حتماً ما أكتب الآن. لكي لا يكتب التافهون باستخفافٍ، بسخرية عن اكتشاف المتوسّط؛ لكني أقول لكم يقيناً إنّ في الأمر نبلاً وعسراً. ما عاد يكفي طبيعتنا الرومنطيقية حتّى الثمالة إلاّ أن تتوّج الجهود المبذولة منذ زمن بالنجاح؛ كان على أوروبا القروسطية أن تعبر عصوراً لكي تبلغ ما بلغته الآن... وأحياناً، يخيّل إليّ أنّ كلَّ معنى الملحمة المنجّية التي خاضتها كتالونيا يمكن تلخيصها حالياً باكتشاف المتوسّط. فلنكتشف ما هو متوسطي فينا، والانتماء إليه، ونشره في أرجاء العالم كأنه مأثرة إمبراطورية. غير أنه من العسير علينا أن نحظى بتعاون فنانينا في هذه الملحمة. تضافر تأثيراتٍ، وتضافر حتمياتٍ يحولان دون ذلك. وأخشى ما أخشاه أن يختار بعضهم، إذا ما جوبه بنزاعٍ روحيّ بين المتوسّط وأعدائه، الانحياز إلى صفّ البرابرة.» [٧٥]

كان دورس يقترح تدخلاً كتالانياً في شؤون أسبانيا، كتمهيدٍ لتدخّل في النزاعات ذات الطابع العالمي وخاصّةً في إفريقيا والشرق وفي المتوسّط. غير أنّ مثاله كان إمبراطوريةً معنوية، غير مادية بأية حال، تتلخّص في نشرِ فنّ إنساني وكوسموبوليتي، وفي

الشغفِ بالعلمِ والعمل الإبداعي للغةٍ صادقةٍ، وفي الاشتراك في المؤتمرات الدولية وتوسيع التجارة وإنشاء مرافىء للتبادل الحرّ [٧٦]. وفي معرض التزامه بهذه النزعة التوسعية المثالية ذات الطابع الثقافي الصرف، انتقد كسينيوس «Xènius الانبعاث اليوناني» خلال النزاع الذي واجهت فيه تركيا (١٩٢٠–١٩٢٢) حول السيطرة على الساحل الأناضولي لبحر إيجه. ووصف موقف اليونان بأنه «إمبريالي شرقيّ بالٍ» [٧٧].

بدا واضحاً خيار «النزعة المتوسطية» الجوهرية كمبدأ معنويّ مؤسّس «لكتالونيا الجديدة» في تلك المشهدية الطبيعية التي غلبت على فنّ التصوير النوسنتي المستلهم، في المقام الأول، من سيزان (Cézanne)، مثال الفن التشكيلي المتوسّطي الجديد بسبب رفضه التمثّل والتنظيم المعماري والمستقلّ للملاحظة [٧٨]. أمّا توريس غارثيا فقدّم أفضل تلخيص لما كانت تعنيه استعادة الروحية المتوسّطية في الفنون التشكيلية. في «Notes sobre art» (١٩١٣)، عرض في صيغةٍ منهجية رؤيته المؤمثلة للجمالية «المتوسطية» الجديدة، متحدثاً عن معاودة اكتشاف التراث الحقيقي، أي عن استرداد أخلاقية ما، وعن الاعتقاد بوحدة الروح والتقاليد في بلدان المتوسّط كافّة ؛ نزعة كلاسيكية منظور إليها لا كتيّارٍ متأثرٍ فقط بالمعايير اليونانية، بل كتسويةٍ شكلية كانت تسعى لغلبة النسق البنائي على أجزائه المكوِّنة ؛ ونزعة تعقلية هي نقيض الحدس والفردانية وعرَضية ما هو طبيعي كما في النزعة الرومنطيقية، والسيطرة على هذه الطبيعة عبر الانتظام والتحكّم [٧٩]. بموازاة الخطاب حول فقدان واسترداد الفضائل القومية المميِّزة للنزعة الكتالانية السياسية، كان توريس غارثيا يفسّر تاريخ الفنّ الكتالاني بأنه مباعدة تدريجية للأرومة المشتركة اليونانية اللاتينية التي كانت النوسنتية تدعو إلى الانتماء إليها :

«يستحسن أن نتذكّر باستمرار أننا، من الناحية الإتنية،

متحدون بشعوب الضفاف المتوسطية، وأنه في صلب ثقافتها نفسها ينبغي أن يزدهر فننا. ومع ذلك، يجب أن أعترف بأنني لا أرى أي علامة على هذا التأثير في فننا السابق (...)

نحن نعلم جميعاً بأن كتالونيا بقيت بمنأىً عن النهضة وبأنّ هذا الفراغ في نموّها المنطقي لا يمكن تعويضه أبداً. ولهذا السبب بالذات كان على أبناء جلدتنا أن يبحثوا عن التراث فيما وراء هذه الحقبة، في العصر الوسيط، وهو تراثٌ يصعب أن نجعله متصلاً بما ينبغي أن يكون تراثنا : أي التراث اليوناني اللاتيني العظيم.» (٨٠)

كان يؤيّد أيضاً الرأي المستلهم من النزعة الحداثية الذي تبنّاه دورس، والقائل بأنّ استرداد التراث الكلاسيكي لا يمكن أن يتمّ إلاّ بفضل تثمين المزايا الجمالية الخاصّة بالشعوب المتوسّطية :

«يستحسن إذاً الابتعاد عن هذه النزعة الواقعية التي تخنق الفنّ، عن هذا الهذر في الصورة الخام، عن هذا المثال للفنّ الرخيص، وقد يكون الأحرى بنا أن نعود إلى تقاليد الفنّ الفريد في أرض المتوسّط، والابتعاد عن الانطباعية الفرنسية، وما قبل الرافائيلية الإنكليزية والرمزية الألمانية حتّى لو كانت لا تزال دارجة، بل لأنها ما زالت حاضرة. الأحرى بنا الرجوع إلى الفنّ الخاص بهذه الأرض، المشبع بهذا النور، وليد استعداد أبنائها ونمط حياتهم. ينبغي أن نرى بأمّ أعيننا هذا البحر... أشجار الزيتون والصنوبر، والكرمة وأشجار الليمون، هذه السماء الصافية، وعلى الأخصّ إنسان هذه الناحية، ديانتنا، أعيادنا، حياتنا ! أحسب أن كلّ هذا ما زال مجالاً بكراً، وإن كان، في كلّ أوجهه، انعكاساً لما يجري هنا [...] اليونانيون، اللاتينيون، إيطاليو النهضة... إنهم ، هم، الذين علمونا تأمّل الطبيعة، وليس أهل الشمال.» (٨١)

في ميادين الفنون والأدب إذاً، وجدت هذه «الحملة الصليبية» من أجل الجمال والتناغم والتي قادها، على أكمل وجه، كلّ من دورس وتوريس غارثيا، تجسيدها الملائم. وفي أعمال مثل «متوسّط» Mediterrània (١٩١٠–١٩١١)، أو «الرعوية»

La pastoral (١٩١٠) التي اعتبرها بعض النقاد أوّل عملٍ وثني سجالي في تاريخ فنّ التصوير الكتالاني، عبّر خواكيم سونيير (Joaquim Sunyer) بالرسمِ، عن تعريفٍ «لنزعةٍ متوسطية كلاسيكية» كتالانية أصيلة : مساحات مثالية، هانئة ومنسّقة، حيث الشخصيّات، المتحفّظة والرصينة، ولكن أيضاً المستسلمة لنشوة المنظر المتوسّطي الدافئة، تقيمُ في بيئة هي، في وقتٍ معاً، حديثة ورعوية، يشفّ منها الحنين إلى آركاديا البدائية. في الهندسة المعمارية تجسّدت النوسنتية باستعادة الكلاسيكية الفلورنسية، وفي النحت تجسّدت في إيثار الأشكال القديمة للفنّ اليوناني كما لدى أنريك كاسانوفا وجوسيب كلارا وخوليو أنطونيو. أمّا في الأدب فقد تردّدت أصداء هذا الوله بالانتماء المتوسّطي في الأعمال الشعرية لكارليس ريبا وجوسيب فيسنث فويكس Josep Vincenç Foix، مفسّر البحر، والمعجب باللاتينية الموراسية والمنافح عن نزعة إمبريالية تدعو إلى الهيمنة الكتالانية على شبه الجزيرة كمرحلة انتقالية ريثما يسطع تألقها المتوسّطي.

منذ العام ١٩١١، ظهر الاهتمام بالمتوسّط بكثيرٍ من الحماسة في الحياة السياسية الكتالانية مع الاستعادة السياسية للرابطة وتفشّي مبدأ المتوسّط الاستعماري في أوساط المثقفين الإيطاليين – والقوميين منهم بخاصّة – إثر التوغّل في شمال ليبيا. وانصرف «المستفرقون» المرتبطون بـ Formento del Trabajo Nacional (هيئة العمل الوطني) إلى الدعوة إلى سياسة توسّعٍ في المتوسّط تكون ردّاً على التدخّل العسكري المخرّب في الريف المغربي الذي تدعمه الحكومة المركزية، وأجروا، لهذا الغرض، اتصالات بأنصار موراً أمثال غونثالو دي ريباراث أو شيزار سيليو [٨٢]. وكان الممثل الأبرز لهذا الاتجاه – وهو الباحث المتوسّطي النزعة الوحيد الذي يدرك الفحوى السياسية العملية لاعتقاده – رافاييل غاي دي مونتيّا Rafael Gay de Montellá (١٨٨٢–١٩٦٩). كان غاي اختصاصياً في القانون التجاري، ناضل في فترة صباه في

صفوف الرابطة (Lliga)، وألهبت حماسته النفحة النبوية للنوسنتية وجعله كامبو (Cambó) من خاصّة أعوانه. ويمضيّ أربعة عقودٍ من الزمن، نشر عدداً من الخلاصات حول العناصر التاريخية والاقتصادية والاستراتيجية للوضعِ السياسي في حوض المتوسّط والدور الذي ينبغي لأسبانيا أن تؤديه [٨٣]. لطالما لاحظ غاي طابع الوحدة التاريخية للمنطقة المتوسطية التي، برغم استقلال مكوّناتها، كانت بمثابة حافزٍ للهوية الروحية للقارة الأوروبية وحتّى للعالم أجمع :

«إنّ تاريخ شعوبه التي جعلته رحم العالم، يمثّل أعظم تواريخ البشرية قاطبة. وقد كان للتحوّلات التي كابدتها الشعوب التي احتلّت، مع العصور، مختلف مجالات هذه المنطقة، تأثير بالغ على تشكّل البشرية، بحيث أمكننا القول إنها (أي هذه الشعوب) هي التي كيّفتِ الحضارة الراهنة للعالم وهي التي أكسبتها قيمتها الجامعة والخالدة.» [٨٤]

في هذا السعي للانتماء إلى الميراث الكلاسيكي بوصفه لبّ الحضارة الحديثة، كانت «النزعة المتوسطية» تبدو على طرفِ نقيض من الروحية الجرمانية. وكان غاي في العام ١٩١٧، يرفض، بنبرة صريحة العداء للألمان، أطروحة ستيوارت تشامبرلين (Die Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts, 1899)، التي تقول إنّ الأصالة الروحية لليونان القديمة، تتجسّد، في الحقبة المعاصرة، في العرق التوتوني :

«إنّ هذه المحاولة لإنكار وحدة الثقافة المتوسطية وديمومتها التاريخية، عبر تجريدها من تلك الهالة الروحانية التي ورثتها عن الهلّينية، ترغم المتوسطيين على التصدّي لها بالتأكيد الجازم بأنّ لدى الأعراق والشعوب التي تقيم على ضفاف البحر الداخلي بقيةً من الروحية الجمالية التي تحثّها على اعتبار انها أعضاء من أسرةٍ واحدة استمرّت عبر العصور منذ اليونان، ولم تنقطع.

إنّ مثال الشعوب المتوسّطية هذا (...) لم تشعر به أسبانيا بعد. حتّى أن هناك من قال إنّ أسبانيا لم تكن بلداً لاتينياً.» [٨٥]

وبالفعل، فإنّ إحدى الأطروحات التي لم يكفّ غاي عن الدفاع عنها، بحماسة بالغة، حتّى الحرب الأهلية في العام ١٩٣٦، كانت اعتبار الثقافة الكتالانية كمظهرٍ خاص من مظاهر الثقافة المتوسطية الجامعة التي تضفي على كتالونيا، بعناصرها العلمية والفنية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، طابعاً من التماسك الاجتماعي العضوي الذي، في تناغمٍ تام مع المثالية الهيغلية، كانت مهمّته الإنجاز التام للروح الإنسانية بما يتعدّى الزمن. كانت الثقافة الكاستيّانية تُجْبَهُ بهذه الثقافة «الماهوية» واللازمنية المولّدة للقوى الروحية الهدّامة (التسلّط الكاريزمي وتأليه الدولة إزاء تنمية الحسّ المدني والوعي الوطني الكتالاني)، والمجرّدة من الشعور الوطني ومن المثالية التاريخية [٨٦]. كان غاي يقدّم التوسّع الكتالاني في الشرق كالعنوان الأسمى للتدخّل في السياسة المتوسطية، برغم أفول قوّتها البحرية بسبب صلتها السلالية بكاستيّا. إذ كانت الاكتشافات الجغرافية في كاستيا والبرتغال، في القرن الخامس عشر، تمثّل نقيض الرؤية التاريخية والثقافية للمتوسّط التي طالما نافحت عنها كتالونيا خلال عصور ازدهارها :

> «كان الشعب اللاتيني، سيّد البحار ومالك الأساطيل المهيبة التي نمت في ظلّها تجارة مزدهرة، يتحد بالشعب الكاستيّاني الجاهل للمغامرات البحرية [...] بعد ذلك، كان اكتشاف العالم الجديد الذي أثار كلّ الأطماع الممكنة، والتخلّي التدريجي عن سلطان المتوسّط للجنويين، أعداء الكونفديرالية الألدّاء، كما كانت رصاصة الرحمة، أخيراً، ملحق وصيّة إيزابل الكاثوليكية الذي يستبعد العرش الأراغوني من بلاد الهند ويمنح حقّ استغلالها لكاستيّا، كانت هذه هي أسباب أفول وخضوع السلطان البحري الكتالاني الذي، لو استغلّ، لجعل من أسبانيا في طليعة أمم العالم.» [٨٧]

كانت العبرة من زوال النفوذ التاريخي للقوة البحرية لكتالونيا هي أنّ

«أسبانيا، في مواجهة مسألة الهيمنة المتوسطية المستقبلية، لا تستطيع، في المقبل من الأيام، أن تتخلّى عن هذه السياسة، وينبغي لها أن تعمل عليها وفق ما تمليه مصالحها الخاصّة ومن خلال إسهامها في سياسةٍ مثالية للأعراق في بحرنا الداخلي.» [٨٨]

لذلك، كان غاي يقترح تدخلاً على ثلاث جبهات : الجبهة الاقتصادية (إنشاء اتحادات مصرفية من أجل تنمية الصناعة والزراعة والتجارة ؛ إنشاء مرافىء للتبادل الحرّ ؛ حماية الهجرة ؛ تخفيض أسعار النقل، بناء أسطول بحري قادر ؛ وتطوير التقنيات البحرية)، والجبهة العسكرية أو الاستراتيجية (تأميم صناعات الملاحة البحرية مع تشجيع الاستثمارات الخاصّة ؛ الدفاع عن الشريط الساحلي وتدعيم المثلّث الاستراتيجي روساس – ماهون – قرطاجينا) والجبهة السياسية أو الدولية (إنشاء كتلة غربية للدول اللاتينية بحيث توازن قدرة التوسّع لدى «أوروبا الوسطى» (Mitteleuropa) الألمانية، وهو المشروع الذي كان دعا إليه لويس برتران في العام ١٩١٦). إلى جانب هذه الاقتراحات التي بدا أنها تضفي محتوىً عملياً للخطوط الإمبريالية التي عدّدها دورس عام ١٩٠٩، كانت هناك مطالبة ملحاحة للحكومات بمزيدٍ من الالتفات إلى قضايا الحقوق المدنية التي ينبغي أن يلحظها نظام الحماية في المغرب، كما قدّم عدد من الحجج التاريخية والسياسية والقانونية لصالح قيام طنجة الأسبانية.

لقد لاقى المشروع السياسي «المتوسطي النزعة» الذي دعا إليه غاي عدداً من المعارضين. إذ رأى صاحب نزعة تقليدية مثل كارلوس آراوث دي روبليس (Carlos Arauz de Robles)، أن التطلّعات الهويّة (identitaire) لكتالونيا في المتوسط من شأنها أن تؤدي إلى تشتّتٍ في الطاقات قد ينهي أي جهدٍ لانتهاج سياسة فاعلة في المنطقة [٨٩]. هذا البرنامج، وهو خطّة كاملة لسياسة متوسطية، والذي يبقى، جوهرياً، ذا طابعٍ اقتصادي (تغلغلٌ تجاري ومالي)، كان ينبغي أن يطبّق بعد الشروع في إصلاحٍ إداري

لا تكون كتالونيا هي الطرف الوحيد فيه. إذ كان من المفترض أن يجري تنظيمه من قبل «اتحادٍ واسعٍ» للمقاطعات المتوسطية يمتدّ من الإمارة إلى الساحل الأندلسي [٩٠]. ولا حاجة هنا إلى القول إنّ التطلّع التوسّعي للبورجوازية الكتالانية قد اصطدم بالموقف المعلن المسالم والمحايد للجمهورية الثانية، وخاصّة في متوسّطٍ غربي تحوّل إلى ساحة تنافس بحري بين بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا. وفي أعقاب الحرب الأهلية كان على غاي يضفي بعض الاعتدال على موقفه المعارض لكاستيّا وأن يُضمّن خطابه شواهدَ مرجعية ذات نبرة أسبانية واضحة (خوبيلانوس، مننديث بيلايو، فاسكيث دي ميّا...) لكي يبرّر سياسةً تدخلية في حوض متوسّطي بقي، في مواصفاته الجوهرية، على ما هو عليه.

في فترة ما بعد الحرب، على الأرجح، بقيت الشخصية الكتالانية الجمعية تعرّف نفسها استناداً إلى «نزعتها المتوسطية»، ولكن من دون أن تضمنها محتوىً سياسياً معلناً. وأجريت دراسات كثيرة ذات طابعٍ تاريخي وفلسفي أو حتّى أنتروبولوجي (L'esperit de Catalunya لخوسيب ترويتا، و Notícia de Catalunya لخاومي بيثينس بيبيس Jaume Vicens Vives، أو Les formes elementals de la vida catalana لخوسيب فيراتر مورال). وكانت تتطرّق لعناصر المحيط السيكولوجي والهوّي الكتالاني، الوثيقة الصلة بالمتوسّط، ليس فقط بوصفه مجالاً تاريخياً للتوسّع الاقتصادي والعسكري الكتالاني القروسطي، بل أيضاً بوصفه أداة تعريفٍ لا زمنية للكائن الكتالاني. بيثينس (Vicens) الذي كان يشكو من حقيقةِ

> «أنّ ما من مؤرخ سعى إلى تعميق الطابع السياسي والثقافي لرسالتنا المتوسّطية» [٩١]

كان يرى كتالونيا كبلد حدودٍ، تحوطه الجبال من ناحية ومن ناحية تحوطه البحار، وسكانه الساحليون تتميّز طباعهم بالانفتاح والشمولية والتعطّش للجديد والذرائعية والسخرية

والعاطفية والحرية، التي قد تصبح مهدّدةً بفعل التهجين المفرط. من جهته، كان فيراتر يعتبر، في خاطرةٍ مفرطة في تأثرها بدورس، أن العالم المتوسطي هو عالم الاعتبار، والاعتبار هو القيمة التي تشبّعت بها الهوية السيكولوجية وحتّى الأتنية للكتالانيين [٩٢].

يتضح في آخر المطاف أن النزعة المتوسطية النوسنتية، هي، قبل كلّ شيء، برنامج رجعي يتموّه بالحداثة : إنها موقف حنين إلى الأمان، إلى «الرجوع إلى الكنف الأبوي» اليوناني الروماني نمّته البورجوازية الكتالانية للحفاظ على سويّتها العاطفية في مواجهة تقلّبات السياسة الداخلية الأسبانية وحال التوتّر التي تسود الساحة الدولية. ولا صلة لصراعها ضدّ الطلائع ذات الأصل الأجنبي، ولرجوعها إلى تقاليد مزعومة، بأي نزعة إكزوتيكية حداثية من طبعها الميل إلى «المغامرة» والاكتشاف [٩٣]. كما أن النوسنتية، بما هي برنامج جمالي، لم تسع إلى وصف الواقع كما هو، بل سعت إلى صوغ واقعٍ مزيّف من شأنه أن يصاغ مجدداً في هيئة أسطورة تعاود تأسيس الشرعية المفقودة. ولم تكن هذه النزعة المتوسطية، ذات الأصداء اليونانية والرومانية أو المنبثقة من الأمجاد الكتالانية القديمة، سوى ذريعة ذات طابعٍ بيئي، مشهدي، أمكن من خلالها خوض النقاش مجدداً في صيغة عباراتٍ مثالية ورمزية لوصف التعارض بين الشمال والجنوب، وتوفير غطاء فكري لبرنامج الإحياء الوطني الذي تقوده النزعة الكتالانية السياسية. ولعلّ ما عبّرت عنه هذه النزعة من إرادة واعية للجمعِ بين النزعات المتوسطية والكلاسيكية والقومية التوسّعية، ومن إرادة بناء هيكلية متوسطية قائمة على فكرة إنسان متوسطي حاملٍ للقيم الخالدة، لعلّ هذا ما حثّ بعض المؤلفين على وصف النوسنتية بأنها برنامج جمالي لتيارٍ ما قبل فاشستي، أو فاشستي شعبوي، كتالانيّ مجهض [٩٤].

ولكن بصرف النظر عن هذه المساجلات، كان للنوسنتية الفضل

في صوغ سلسلةٍ من الصور المعظّمة للبيئة المتوسطية التي ما زال صداها يتردّد حتّى أيامنا هذه في لاوعي الشعب الكتالاني. وقد حلّ صداه الأكثر شعبية في مجال الفنّ: في التصوير الطليعي لخوان ميرو (١٨٩٣–١٩٨٣) [٩٥]، وفي الكتابات التي تزخر بالأصداء الميتولوجية لسلفادور أسبريو Salvador Esprίu (١٩١٣–١٩٨٥) [٩٦]، وفي الرغبة في أسطرة المتوسّط بوصفه عالماً مصغّراً حيوياً، ضبابياً ومغامراً، كما في روايات بالتاسار بورثيل [٩٧]، وفي إعادة ابتكار معنى المناخ المسرحي بوصفه أسلوباً عضوياً لفهم المجتمع والحياة من خلال تقديم الأعمال اليونانية أو الرومانية في مهرجانات سيتجس أو ميريدا، وعلى الأخصّ في التشبّع الغنائي للمجال البحري المتكرّر لدى ممثلي «الأغنية الجديدة» الكتالانية للستينات والسبعينات كما لدى ماريا ديل مار بونيت ولويس لاش، وخاصّة خوان مانويل سيرّات الذي لا ريب في أنّ أغنيته «Mediterráneo» (١٩٧١)، شكّلت إسهاماً أساسياً في إعادة الابتكار العاطفية لهذا البحر بالنسبة لأجيال عديدة من الأسبان.

في السنوات الأخيرة راحت الأندلس تتبنّى، وإن بدرجةٍ أقلّ مما هي الحال في الساحل المشرقي، تراثها المتوسطي بنسبتهِ، على نحوٍ أوثق، إلى الأسطورة المؤسّسة لطُرطوسا ولحملات الاستعمار الفينيقية واليونانية والقرطاجية والرومانية. غير أنّ حقبة الأمجاد الأندلسية هي التي تضفي معنى تاريخياً للنزعة القومية الأندلسية. ذلك أنّ الصلة بالمتوسّط، في المتخيّل السائد لهذه المنطقة، ليست صلةً بحريةً، بل تُسقِطُ نفسها على التواصل التاريخي والجغرافي والثقافي بين ضفتي المضيق. فالواقع أن الأندلس تحتفظ في نقوش شعاراتها بأعمدة هرقل، وعلمها المستلهم من رايات خليفة قرطبة وإمبراطورية الموحدين، يجمع، دونما انقطاعٍ، بين أخضر الفردوس الأندلسي وأبيض المغرب التبشيري.

إنّ الأمثلة النوسنتية للحوض المتوسطي بوصفه مهداً للإنسانية و«المعين الأخلاقي» للغرب في مواجهة المشكلات التي تسببها الحداثة، سوف يولّد أيضاً، عند نهايات القرن، ظهور أبحاثٍ سجالية، على غرار بحث لويس راثيونيرو غراو «المتوسّط وبرابرة الشمال» (لاسيو دي أورجيل، ١٩٤٠). ففي مطالعته العنيفة ضدّ إسرافات التصنيع والتكنوقراطية، يرى راثيونيرو أن عبارتي «بربري» و«متوسّط» لا تدلاّن على أنماطٍ أتنوغرافية أو على مناطق جغرافية ملموسة، بل على مفاهيم وصفية لأنماطٍ من السلوك موجودة، إلى هذا الحدّ أو ذاك، في كلّ مكان : صناعة الشمال وتكنولوجيته وحداثته بمواجهة العلاقة الإنسانية ونوعية الحياة التي توفرها فكرة المتحد التقليدية في الجنوب، والأكثر تمدناً بالمعنى الاشتقاقي للكلمة، لأن الحياة المدينية لطالما لطّفت من توحش الإنسان ومنحته السخرية كمنهج بحثٍ في المشكلات [٩٨]. دَعةٌ وانسجام ونزعة حسيّة، تلك هي المزايا «الماهوية» للمشهد المتوسطي الطبيعي، في نصوصٍ كأنها اقتبست من إحدى صفحات Glosari دورس أو روايات غابرييل ميرو :

> «من يستطيع الكلام على عذوبة المتوسط في شهر أيلول/سبتمبر ؟ سكون البحر التام، إشراق الزرقة في أشجار الصنوبر، والغلالة الحريرية الموّارة للمياه ذات الأنفاس الرقيقة الساكنة. كيف تلثم المياه السماء، وبأية رقّة، هي الآية، يجيد الاتكاء على قعر إغفاءته المنتبهة من أنوارٍ وانعكاسات ؟ يصعب أن نسكب المتوسّط في عبارات حسيّة : الرهافة، النور، الحرارة، العطر، السكون ؛ ومع ذلك فهذه الأحاسيس هي السبل الوحيدة لبلوغِ الطباع والثقافة التي يولّدها.» [٩٩]

وعلى النحو نفسه يصوغ المتوسّط طابعاً خاصاً ؛ إنه ينتج نمطاً من الحساسية الفنية

> «طبيعية النزعة في موضوعها، دقيقة وواضحة في شكلها، رقيقة في لونها، متعرّجة في خطّها، رشيقة في «أسلوبها»، مطواعة

في إيقاعها وحركتها.» (١٠٠)

ففي المحصلة، يرتقي مجدداً ميراث المتوسط الاعتباري، ميراث الفهم الجليّ والأبيقوري للكون الذي ينزع إلى الكوسموبولوتية، وتثمين العمل والانضباط، وإرادة التسامي والتوازن بين الفردية والجماعة ؛ يرتقي هذا الميراث كبديلٍ ذي طابعٍ إنساني واضحٍ ضدّ تحديات الحداثة.

أسبانيا، الفاعلة، المسوِّفة، وضحية «المشكلة المتوسطية»

في نهاية القرن التاسع عشر، وفي ظلّ النزاعات بين الإمبرياليات لإعادة توزيع العالم، جرت مواجهات بين القوى العظمى بغية السيطرة لا على المحميات أو المانيفاكتورة أو الشركات المالية والنقاط الاستراتيجية، بل على المجالات الإقليمية الواسعة، وعلى حساب السلطنة العثمانية. فمنذ الثمانينات وحتّى نهاية الحرب العالمية الثانية، تحوّل النطاق الجنوبي لحوض المتوسّط إلى ساحة للمعارك الاستعمارية والمالية بين القوى الرئيسية (١٠١). وكان غاي دي مونتيا يقيم الحصيلة وفق الأوضاع في حوض المتوسّط في مطلع القرن العشرين :

> «وجدت فرنسا نفسها معزولة تماماً. هناك إمبرياليتان تهدّدانها بالطريقة نفسها : إنكلترا المستعدّة للدفاع عن هيمنتها المتوسطية، ما يعني الدفاع عن بقاء الحاضرة الأمّ ؛ والحلف الثلاثي، الممثّل بإيطاليا والنمسا، الذي يحرص على تطوير قواه البحرية، فيما تراقب هاتان القوتان باهتمام حركة الأساطيل الفرنسية المنصرفة إلى الدفاع عن الساحل الإفريقي وقواعد وهران وبيزرت، البعيدة جداً عن الوطن الأمّ. فلا ألمانيا ولا أسبانيا ولا تركيا أو اليونان، تتدخّل دبلوماسياً أو عسكرياً في السياسة المتوسطية.» (١٠٢)

مع ذلك، اضطرّت أسبانيا إلى الانتقال، على وجه السرعة، من

رؤيةٍ شبه فولكلورية إلى رؤية استراتيجية للمنطقة، بغية حصولها على مسؤولياتٍ استعمارية جديدة. ففي غضون الحقبة التي بقي فيها التوازن الأوروبي القائم على قدرٍ من الهشاشة (١٨٧٠–١٩١٤)، لم تتخذ أسبانيا أي مبادرة أمنية في المتوسّط. إذ كانت تعوزها الرؤية الإجمالية للمنطقة على الضدّ من القوى الأخرى كبريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا أو ألمانيا. فقد تركّزت رؤيتها لحوض المتوسط، طوال عهد ألفونس الثالث عشر (١٩٠٢–١٩٣١)، على استعمار المغرب، دون سواه، مع تطلّعات ظرفيّة باتجاه البلقان وحول الأمن في المتوسط الغربي، حيث كان التنافس بين فرنسا وإيطاليا يبدو بمثابة عقبة منيعة أمام السياسة المثالية للأعراق في حوض المتوسط.

بدءاً بالعام ١٨٩٣، بدا من البديهي أن تعمد الحكومة الفرنسية إلى التقرّب، أكثر فأكثر، من أسبانيا بهدف القيام بعملٍ مشترك في شمال إفريقيا. غير أن اتفاقية ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٢ الفرنسية الأسبانية حول تقسيم مناطق النفوذ في المغرب على قدم المساواة (كانت الاتفاقية تنصّ على بسط النفوذ الأسباني حتّى فاس وتازا، كما كانت تنصّ على حياد طنجة)، لم تبرم من قبل رئيس الوزراء فرنشيسكو سيلفيلا، تحسّباً لردّ الفعل البريطاني. وقد أسهم هذا الموقف المتحفّظ في إبعاد أسبانيا عن الاتفاقية الإنكليزية الفرنسية المعقودة في ٨ نيسان/أبريل ١٩٠٤، حول حياد قناة السويس والحفاظ على الوضع القائم السياسي والاقتصادي في كلّ من مصر والمغرب. والواقع أن هذا كان يفترض الاعتراف لفرنسا، كقوة محاذية، بحقّها في السهر على استتباب الهدوء في المملكة الشريفية، وإن كان ذلك من خلال حماية المصالح الأسبانية في المنطقة. وبهذا الاتفاق على تقسيم مناطق النفوذ، تكون حكومتا لندن وباريس قد أنهيتا قرناً من التنافس في حوض المتوسّط، وأقامتا دعائم تحالف سوف يستمرّ حتّى الحرب الكبرى.

مع اتفاقية ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٤ الأسبانية الفرنسية التي تنصّ على الانضمام إلى إعلان شهر نيسان/أبريل المنصرم، الفرنسي الإنكليزي، سعت حكومة مدريد إلى استرداد الأراضي التي خسرتها قياساً بموقعها المتفوق في المغرب في أواسط القرن السابق، عبر المطالبة بحق التدخل والتملّك في حال زوال سيادة السلطان. وكانت هذه الاتفاقية بالنسبة لأسبانيا بمثابة عودة نهائية إلى الساحة الدولية بعد خسارة إمبراطوريتها عبر البحار في عام ١٨٩٨، في صيغة استعمارٍ بديلٍ، وصاحب حقّ بضمانة مواقف القوى العظمى. غير أنّ القضية المغربية كانت في تلك الفترة تتحوّل تدريجاً إلى قضيةٍ دولية : فإثر الزيارة المباغتة التي قام بها غييوم الثاني إلى طنجة، في ٣١ آذار/مارس ١٩٠٥، عادت القوى العظمى لمواجهة المشكلة مجدداً. ودعت هذه القوى إلى عقد مؤتمرٍ في ألجيسيراس في ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٠٦، يضمن سلامة السلطان المغربي، لكنّه، في الوقت نفسه، يمنح فرنسا الحقّ في القيام بعملٍ سياسيّ ذي أرجحية. فمن وجهة نظر أسبانيا أعتبر مؤتمر ألجيسيراس نجاحاً معنوياً وسياسياً لأنه صان مصالحها في المنطقة، وضمن انضمامها نهائياً إلى النادي العالمي بسبب أهميتها في استقرار المتوسّط الغربي. وقد كرّس المؤتمر الأسباني البريطاني الذي عقد في قرطاج في ٨ نيسان/أبريل ١٩٠٧، دورَ أسبانيا المزدوج : كوسيطٍ بين فرنسا وإنكلترا، وكملطّفٍ للأطماع الألمانية المتعاظمة. وقد أتاحت، المراسلات الإنكليزية الأسبانية الفرنسية بهذا الشأن حول الوضع القائم في المتوسّط (١٦ أيار/مايو ١٩٠٧)، إبرام الالتزام بعدم التخلّي، تحت أي ظروف، عن جزيرة، أو عن مرفأ أو عن ساحلٍ من ممتلكاتها (ولم يسمّ أيّ منها لكي تتجنب أسبانيا الاعتراف بالسيادة الإنكليزية على جبل طارق)، والوعد بمؤازرةٍ متبادلة في حال تعرض أحد البلدان الثلاثة لأي تهديدٍ لمصالحه في المتوسّط بسبب تعاظم الحضور التجاري الألماني. بموجب هذه الاتفاقية ذات الطابع الدفاعي البحت إزاء السياسة البحرية والتجارية للحلف الثلاثي،

جرى، وللمرّة الأولى، تحديد وتنسيق سياسة الأمم الأوروبية الثلاث التي كان لها، حتّى ذلك الوقت، وجودها التاريخي في المتوسط الغربي. ولكن فضلاً عن المشكلة المغربية ونزعة التدخّل الألمانية المتعاظمة، كانت السياسة الدولية في حوض المتوسّط تطرح، خلال العام ١٩٠٧، عدداً أكبر من المشكلات حوّلت هذه المنطقة إلى المنطقة الأكثر تعرّضاً للنزاعات في الكرة الأرضية بأسرها : من قبيل نشأة حركةٍ إسلامية جامعة، ومسألة حرية التنقّل عبر الدردنيل، والأطماع السلافية في القسطنطينية ؛ أمّا فيما يتعلّق بأسبانيا، فكانت هناك مسألة التنامي المتعاظم للإمبريالية الإيطالية الناشئة وإرادة فرض هيمنتها على المنطقة [١٠٣].

أدّت الخطوات الأولى التي قامت بها فرنسا سعياً وراء السيطرة الفعلية على المغرب، مع احتلال فاس في أيار/مايو ١٩١١، إلى بروز نزعة التدخّل العسكري الأسباني في المناطق الخلفية الواقعة بين سبتة وتطوان (احتلال العرايش والقصر الكبير)، ووصول السفينة «بانتير» إلى أغادير في تموز/يوليو. وقد تمّ استئصال الأزمة بفضل المعاهدة الفرنسية الجرمانية في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر، والتي اعترفت بإطلاق يد فرنسا في المغرب بمقابل التخلّي لألمانيا عن أراضٍ في إفريقيا الاستوائية، وبفضل معاهدة فاس في ٢٠ أيار/مايو ١٩١٢، والتي بموجبها اعترف نظام القوى، من دون أي لبس، بالحماية الفرنسية على المغرب، على حساب التطلّعات الأسبانية. بعد ذلك ببضعة أشهر، أي في ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ، جرى توقيع اتفاقية في مدريد تنص على قيام نظام حماية محدود لأسبانيا على منطقة الريف وطرفاية. تبع ذلك عدد من الخطب الانهزامية. فلمناسبة «خطاب العرش»، في ١١ أيار/مايو ١٩١٤، طالب نائب الرابطة فيليبي روديس، بإعادة النظر في المعاهدات والتخلّي عن التحرّك الجاري في إفريقيا الشمالية :

«لِمَ لا يتعيّن علينا أن نقترحَ إعادة النظر في المعاهدات إذا كنّا نعتقد بأن المهمّة تفوق قدراتنا ؟ لن نفعل ذلك بسبب إجحافٍ تاريخي ولأنّ هاتين القوتين اللتين ذكرتهما (ضرورة التدخّل بين مصالح فرنسا وإنكلترا) تواصلان الدوران حول هذه المشكلات.

«ومع ذلك فلن يؤدي ذلك إلى الإخلال بالوضع القائم في حوض المتوسّط. فأسبانيا تستطيع أن تكون أمة متوسطية كما تستطيع أن تكون أمة أطلسية. ومن يزعمون أن مستقبلنا في أميركا، فليجهدوا، وليبعثوا بإرساليات مسالمة، تجارية، لكي تتحوّل أسبانيا من أمة متوسطية إلى أمة أطلسية. هذا فضلاً عن أن الوضع القائم في حوض المتوسّط لن يضطرب لأن مثل هذا الاضطراب يعني اندلاع حرب في أوروبا، ومثل هذا بدأ يثير الخوف في روع الشعوب، لأنّ الحرب الأوروبية لم تندلع لا بسبب قضية طنجة، ولا بسبب أغادير، ولا عند تغيير الوضع الذي كان قائماً في البلقان ؛ والحرب الأوروبية لم تندلع لأنّ ضدّها تسعى قوتان متعارضتان تماماً، قوتان تسعيان في ساعة الخطر في الوجهة نفسها للحفاظ على المصلحة العليا المتمثلة بالسلام ؛ من جهة هناك المال، والممولون الكبار، ومن الجهة الأخرى، هناك الشعب.» (١٠٤)

ولكن التوتّر في المتوسط انتقل، بين العامين ١٩١١ و١٩١٤، إلى المنطقة الشرقية الوسطى، على أثر غزو إيطاليا لشمال وشرق ليبيا، ورودس والدوديكانيز على حسابِ تركيا (١٩١١-١٩١٢)، والحروب البلقانية المتعاقبة (١٩١٢-١٩١٣) التي أثارها التعارض بين مصالح قوى التحالف الثلاثي ومصالح روسيا التي كانت تسعى وراء ذريعةٍ للدخول إلى الحوض المتوسّط. وكان تجميع الأساطيل البحرية لمختلف القوى في المتوسّط ينذر بنشوب نزاعٍ أوروبي لدى أبسط احتكاك دولي. في ظلّ هذه الظروف، كانت أسبانيا تقدّم نفسها على أنها عامل توازن، استناداً إلى موقعها الاستراتيجي المميّز، ونظراً لحضورها العسكري على السواحل الإفريقية. فكما لاحظ السياسي الكتالاني فرنسيس كامبو (Francesc Cambó)، في ردّه على مواطنه روديس، خلال مناقشة

عام ١٩١٤، حول السياسة الدولية :

«إنّ وجود أسبانيا في منطقة المغرب ليس حلاً لمشكلة التوسّع، بل هو حلّ لمشكلة استقلال يطرحها علينا البعد الدولي الحاصل جرّاء مشكلة حوض المتوسّط.

«إنّ مشكلة حوض المتوسّط، أيها السادة النواب، هي المشكلة الدولية الكبرى في زماننا، وفي المتوسّط يجري اليوم السعيّ لحلّ مسألةِ هيبة الأمم، وفي حوض المتوسّط سوف يجري تعيين الشعوب التي ينبغي أن تزول، كما زالت تركيا على وجه التقريب، وما هي الشعوب التي ينبغي أن تبقى. إنّ حوض المتوسّط، وخاصّة بعد حفرِ قناة السويس وبعد احتلال القارة الإفريقية بأكملها من قبل الأمم الأوروبية، بات بحر البلدان الحيّة في العالم (...) وقد تمّ التوصل إلى اتفاق بين القوى بشأن مشكلة حوض المتوسّط، الشديدة التعقيد، وبذلك أقيم توازن كان من المتعذّر جداً التوصّل إليه. وقد جاء هذا التوازن على حساب تركيا. وهذا التوازن، يا سادتي النواب، يضمن لأسبانيا أمرين اثنين : يضمن لها حاضراً ومستقبلاً. ذلك أن التوازن الحالي في حوض المتوسّط، والذي ترى كلّ القوى أن بقاءه يخدم مصالحها، يكرّس استقلال أسبانيا ؛ يكرّس سيادة أسبانيا داخل حدودها، وينقذ حاضرنا، ينقذ راهننا بما نحن أمة مستقلّة وحرّة ؛ غير أنّه، من جانبٍ آخر، يتيح لنا الاحتفاظ بمستقبلٍ في إفريقيا الشمالية. لذلك فإنّ التخلي عن هذا المستقبل الذي يضمنه لنا توازن الحوض المتوسطي الحالي في إفريقيا الشمالية لا يعني، يا سادتي النواب، التخلّي عن المستقبل والتنكّر له : بل يعني أيضاً التخلّي عن الحاضر والتنكر له، والتنازل عن استقلال أسبانيا والتخلّي عنه.

«ففي اليوم الذي ستتخلّى فيه أسبانيا عن النطاق الساحلي الشاسع الذي تضمنه لنا المعاهدة في المغرب، سيكون هو اليوم الذي سيشهد خللاً في توازن حوض المتوسّط : ستكون هناك أمّة أو مجموعة من الأمم تنمو وتتعاظم قواها في المتوسّط بحيث أنها ستشكّل تهديداً للأمم الأخرى التي قد تكون لها مصالح في هذا النطاق.

كيف سيكون حلّ المشكلة ؟ (...) في اليوم الذي قد تتخلّى فيه أسبانيا عن حقوقها، في اليوم الذي سيتجدّد فيه، بفعل إعلان القطيعة الطوعية هذه للجنسية الأسبانية التي دعا إليها السيّد رودس، بروز المشكلة الكبرى لحوض المتوسّط، سوف يستعيد حوض المتوسّط توازنه. وهذا، يا سادتي النواب، ما ينبغي أن يخشاه كلّ الأسبان، وينبغي أن نخشاه نحن الكتالانيين، علاوةً على كوننا أسبان، أكثر من سوانا. ذلك أن العِوَض الذي يفرض نفسه بداهةً من أجل إعادة التوازن للحوض المتوسّطي والذي أثرناه نحن بمبادرتنا إلى التخلّي، سيكون جزر الباليار، ومثل هذا الأمر سيكون بمثابة تقويضٍ للوحدة الروحية لكتالونيا ؛ وكتالونيا المجزّأة من قبل فرنسا، وإذ ذاك تكون كتالونيا، إثرَ إخضاع جزر الباليار لهيمنةٍ سياسية أخرى، قد أنهت رسالتها التاريخية.» [١٠٥]

في نظرِ سياسيٍّ تقليدي متحمّسٍ للثقافة الجرمانية كخوان فاثكيث دي مييا (Juan Vázquez de Mella)، كانت الهيمنة المتوسطية والسيطرة على السواحل الإفريقية اللتان فُقِدتا خلال القرن الثامن عشر لصالح بريطانيا العظمى، أساساً للسيادة الوطنية ولاستقلال أسبانيا التي تمثّلت «عقائدها الوطنية» بالسيادة الأسبانية على جبل طارق، والوحدة مع البرتغال وقيام كونفيديرالية مع المستعمرات الأميركية السابقة [١٠٦]. خلال النقاش المذكور حول السياسة الدولية في الكونغرس، في ٢٨ أيار/مايو ١٩١٤، اقترح مييا فكرة اللجوء إلى مؤتمر حول المسألة المتوسطية لكي يصار إلى تصويب وجهة التحالفات التي تعقدها السياسة الخارجية الأسبانية، وذلك باسم «الاستقلال الذاتي الجغرافي لأسبانيا». وكانت الملاحظة التي تبرّر هذا الانعطاف الكوبرنيكي لعلاقاتنا الدبلوماسية، هي

«أنه بمواجهة إنكلترا وفرنسا اللتين هما عدوتانا الطبيعيتان، لا نجد سنداً لنا سوى ألمانيا. فمن شأن هذه الأمّة أن تمنحنا القوة التي كنّا نحتاجها.» [١٠٧]

وإذ يبدي خشيته من تفاهمٍ بين الأطراف المتنازعة على حساب «المسوِّفين المتوسطيين» الأقلّ نفوذاً، يعتبر المحافظ «الماورستي» فرناندو سواريث دي تانجيل (Fernando Suárez de Tangil) أن الحياد هو البديل الأقلّ كلفة، لأن من شأنه أن يدعّم موقعَ البلاد عند نهاية الحرب، متيحاً لها بذلك أن تحقّق بعض التطلعات الوطنية الشديدة الشبه بتلك التي عبّر عنها مييا: الوحدة مع البرتغال، والعلاقات المميّزة مع أميركا الجنوبية، والتأكيد على الهوية المتوسطية التي من خلالها

> «يحثّنا هذا المثال الذي نتحدّث عنه على تطلّب بعض الشروط بوصفها عناصر لا غنى عنها وحيوية، وعلى تثبيت مسلّماتٍ على هذا القدر أو ذاك من القرب: أولاً، السيطرة على طنجة وجوارها؛ ثانياً السيطرة على جبل طارق وجواره؛ ثالثاً، السيطرة على المغرب، ومعه الجزائر وتونس.» (١٠٨)

في بالما دي مايوركا، أشار الزعيم الليبيرالي رومانونيس (Romanones)، في نيسان/أبريل ١٩١٥، إلى ضرورة إبقاء أسبانيا داخل نظام التحالفات المتوسّطية مع فرنسا وإنكلترا، باسم الضرورة التاريخية والحتمية الجغرافية:

> «بسبب مشكلة حوض المتوسّط يجب أن نبقى في شمال المغرب؛ بسبب المشكلة المتوسطية يجب أن نطوّر فاعليتنا العسكرية والوطنية على قواعد كاديث وقرطاج والجزر؛ بسبب مشكلة حوض المتوسّط وقّعنا، محافظين وليبراليين، على اتفاقيات ١٩٠٤ و١٩٠٥ و١٩٠٧ و١٩١٢ واحترمناها، وبسبب مشكلة حوض المتوسّط تفرض علينا الآن سياسة تفاهمٍ مع هذه الأمم، مع هذه الأمم نفسها التي أقمنا معها، منذ بداية عهد ألفونس الثالث عشر، صلاتٍ مباشرة. وهذه السياسة لا تعني لا انفصالاً ولا عداءً حيال أمم أخرى ينبغي أن نحافظ معها على روابط العلاقات الودية والصداقة؛ إنها فقط النتيجة الحتمية للموقع الجغرافي لأسبانيا، ذلك أنه كما يقول ماورا (Maura) ما لا تستطيع الإرادة أن تفعله هو تغيير الواقع، وصنع أسبانيا أخرى

مختلفة عن تلك الموجودة من دون أن توضع في العالم في مكانٍ مختلف عن المكان الذي تحتلّه في العالم.» [١٠٩]

لم يقتصر السجال، خلال سنوات الحرب، حول الدور الذي ينبغي أن تلعبه أسبانيا في التوجّه المتوسطي للنزاع، على الأوساط السياسية فقط. فقد أبدى الرأي العام اهتماماً خاصاً بتطوّر النزاع الذي كان يقترب، على نحوٍ ينذر بالخطر، من سواحله، وعلى الأخصّ عندما كثّفت ألمانيا، بدءاً بالعام ١٩١٧، حرب الغوّاصات، باستهدافها الأساطيل التجارية الأسبانية في المنطقة بضربات موجعة. لذلك عمد كتّابٌ من المتحمسين للثقافة الفرنسية أمثال البلنسي فيثينتي بلاسكو إيبانييث Vicente Blasco Ibáñez (١٨٦٧–١٩٢٨)، إلى تسخير أقلامهم لخدمة دعاوى حرب الحلفاء، عبر نشرهم مرافعات روائية كـ «بحرنا» Marc Nostrum (١٩١٨).

تكمن أهمية هذا الأدب في مستويي قراءته المرتبطين على نحوٍ وثيق. ففي طابعها الرمزي البحت، تبدو الرواية تذكيراً متواصلاً بالأسطورة المتوسطية المجسّدة في شخصيّاتها الملحمية : إذ يقع البطل الذي يدعى عوليس فيرّاغوت، في حبائل سيرسيه ولكن في هيئة جاسوسة ألمانية. وتحرّضه على التعاون مع العدوّ عبر استخدام مركبه، ويدعى بحرنا، لتموين غوّاصات ألمانية، إلى أن يكفّر عن «خطيئته الأصلية» عبر التضحية بنفسه. أما من الناحية التاريخية، فالعمل هو شهادة إضافية عن الحرب الأوروبية في حوض المتوسّط، لكنّها جُعِلَت على نحوٍ متعالٍ في صيغةِ مثلٍ على الأطماع اللازمنية «لأهل الشمال» في دفء المناخ الجنوبي. ويتطرّق مطوّلاً بلاسكو إيبانييث، في الفصلين الثاني والثالث، إلى موضوعة نشأة الحوض المتوسطي بوصفه بحراً يشتمل على مجمل العالم المعروف، والذي أوجدته الآلهة لكي يمنح الحياة للبشر. فالأطروحة التي يزعم المؤلّف أنه يبتكرها تكمن في أن التاريخ الأوروبي قد يُفَسَّر بأنه يوميّات الصراع الدهري بين الشعوب

الشمالية والشعوب الجنوبية بغيةَ السيطرة على حوض المتوسّط. وفي معرض رغبته في اعتبار هذه الإتنيات متنافرة، يبدي المؤلّف بعض المواقف القريبة من العنصرية :

«كان أهل الشمال الذين يحتاجون إلى حطبٍ مشتعلٍ وشراب كحوليّ لكي يحموا أنفسهم من قرصة البرد، يفكّرون كلّ لحظةٍ في ضفاف المتوسّط. وكانت كلّ أعمالهم الحربية أو المسالمة تتمثّل في النزول عبر البحار المجمدة باتجاه شواطىء البحر ذي المياه الدافئة (...) وكان الجنوب، ردّاً على غزوات الشمال، يواجههم بحروبٍ دفاعية تتوغل صعداً حتّى وسط أوروبا. وعلى هذا النحو قد يتواصل التاريخ، بمثلِ تكرار المدّ والجزر هذين للأمواج البشرية، إذ يواصل البشر تقاتلهم خلال آلاف السنين لغرض السيطرة أو الحفاظ على كأس إلهة البحر الزرقاء.

«كانت شعوب المتوسّط، بحسب فيرّاغوت، هي أرستقراطية البشرية. فقد كيّفت قدراتُ المناخِ الإنسان بما لا مثيل له في أي مكانٍ آخر، إذ منحته بأساً وقوةً لا تلين. وإذ تشرّبت بشرتهم، اسمراراً ولفحاً، طاقة الشمس والبيئة، استحالت جسوم ملاحيها أبداناً من الفلز. رجال الشمال كانوا أقوياء ولكن أقلّ بأساً. كانوا أقلّ تكيّفاً مع المناخ مما كان عليه البحّار الكتالاني أو البروفانسي أو الجنوي أو اليوناني. وكان باستطاعة ملاحي حوض المتوسّط أن يستقروا حيثما أرادوا وكأنّهم في ديارهم، في نطاق هذا البحر حيث راح الإنسان ينمّي طاقاته الأرقى. لقد جعلت اليونان القديمة جسد الإنسان كأنّه قُدَّ من الفولاذ.» [١١٠]

الإنسان المتوسطي يعرف البحر، ويتقبّل قوانينه، ويحترم الإيقاعات الحيوية التي تحرّكه، في حين أن الدخيل الشمالي، البربري، داعية الآلهة المحاربين العدوانيين، يبدو كأنه العدو بامتياز، الخائن الذي لا يحترم قوانين البحر، وكأنه شعب الكائنات (الغوّاصة) التي تقتل غِيْلةً.

إنّ النزعة المانوية لدى بلاسكو تبدو على طرف النقيض من الرصانة والدعة المتوسطيتين اللتين تتسم بهما مؤلفات مثل

«Libro de Sigüenza» (١٩١٧)، أو «El ángel , el molino , el caracol del faro» (١٩٢١)، للكاتب، الأليكانتي الأصل، غابرييل ميرو (١٨٧٩-١٩٣٠)، وهو انطباعي جعل من الحبكة البرهانية ضرباً من الحكاية المقتضبة :

«مدينتي يخترقها البحر المتوسّط. عناصر البحر المنتشرة تمسح الأحجار ومغالق الشبابيك والشراشف والكتب والأيدي والشعر، سماء البحر وشمس البحر - تمجدان الشرفات والأبراج والجدران والأشجار. ومن حيث لا يُرى البحر، تستشعره في ظفر النور وفي الهواء المرتعفِ كغلالةٍ باذخة.

في مدينتي، ومنذ الولادة، تتملّى العيون من زرقة المياه. وهذه الزرقة هي لنا جزء من ميراثنا، ذلك الإرث الرومنطيقي إذا عزَّ ميراث المراكب والأنعام.» (١١١)

على أثر النزاع الأوروبي، طرأ تغيّر جذري على المشهد المتوسطي الإجمالي. إذ وضِعت المنطقة، إثر سقوط الإمبراطورية التركية، على نحوٍ إفتراضي، تحت إشراف القوى الأوروبية التي تعيّن عليها أن تجبهَ عدداً من المشكلات : توفير الإدارة الاستعمارية للبلدان الاستعمارية، والتخفيف من الأطماع الإيطالية واليونانية في بحري الأدرياتيكي وإيجه، وتطوير حوض المتوسّط بوصفه طريقاً لمرور البضائع ذات أهمية عالمية (١١٢). أمّا بالنسبة لأسبانيا التي كانت قد خرجت من النزاع محتفظةً بموقعها كقوّة إقليمية صغيرة، اختزلت «مشكلة المتوسّط» بموضوعاتٍ ثانوية كالنزعة القومية المصرية والتركية، ونفوذ البلاشفة والنزعة الهلّينية الجامعة. غير أن هذه المشكلة كانت تطرح أيضاً مسائلَ ذات أهمية بالغة بالنسبة لأسبانيا كالحفاظ على التوازن البحري، وتلبية تطلّعات لم تجرِ تلبيتها بعد كالإشراف على طنجة واسترداد جبل طارق، وعلى نحوٍ خاص تطبيع وجودها في شمال المغرب. بين ١٩٠٩ و١٩٢٦ استحوذ النزاع الاستعماري الذي عرف باسم حرب الريف، على مجمل اهتمام وجهود

«الاستفراق الحكومي» في أسبانيا، غير أنّه جوبه بمعارضة التشكيلات العمالية والجمهورية، بالإضافة إلى قطاع من الجيش وقسمٍ لا بأسَ به من الرأي العام الذي، بعد أن جاهر بتأييده سياسة التدخّل في عام ١٨٦٠، أعاد النظر في موقفه إثر حادثة مليلة في العام ١٨٩٣. ذلك أن الوقت الطويل الذي استغرقته الحملة على المغرب لم تؤدّ فقط إلى تشويه صورة أسبانيا كقوة مشرفة على الإقليم، والتأثير جوهرياً على سياستها الداخلية («الأسبوع المأسوي» في العام ١٩٠٩، وحملة التطهير إثر كارثة الـAnnual في العام ١٩٢١)، بل أدّت أيضاً إلى انبعاث الصورة الأدبية والشعبية للمغربي بوصفه عدواً وبربرياً وفظّاً (باستثناء دعاة استقلال غاليسيا، والكتالانيين والباسك الذين تعاطفوا مع الريف بوصفه «قومية مضطهدة»)، بموازاة بروز تساؤلٍ متزايدٍ ومعلن حول السياسة الاستعمارية الأسبانية. لقد حدّد النزاع المغربي الرؤية الأسبانية للمسألة الإسلامية، بحيث كانت السياسة العربية والمتوسطية هي الانعكاس الأوضح لمشكلتنا في إفريقيا الشمالية [١١٣].

بصرف النظر عمّا أبداه من نزعة انهزامية في البداية، فقد استغلّ النظام الديكتاتوري لبريمو دي ريفيرا Primo de Rivera (١٩٢٣ –١٩٣٠) الورقة المغربية، ولكنّه آثر اجتناب العوائق التي وضعتها فرنسا للحيلولة دون إعادة النظر في نصاب طنجة عبر تقاربٍ مع القوى المتوسّطية : أي بريطانيا العظمى وإيطاليا، على نحوٍ خاص، التي قصدها الملوك والديكتاتور نفسه في زيارةٍ تاريخية في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٣ ؛ وعلى أثر إنزال الحُسينة، الذي شكّل بدايةً لنهاية المقاومة في الريف، وقّع بريمو في ٧ آب/أغسطس ١٩٢٦، معاهدة صلحٍ وتحكيمٍ وصداقة مع إيطاليا. وفسّرت باريس هذا الاتفاق على أنه اتفاق بحري فعلي كان الغرض منه التصدي للهيمنة الفرنسية في المتوسّط الغربي [١١٤]، الأمر الذي أدّى، بدوره، إلى تسريع الاتفاقية البحرية الفرنسية الإنكليزية في العام ١٩٢٨. وأدّى هذا التفاهم الجديد، في

آخر الأمر، ومعه التثبّت من استحالة نقض الالتزامات الفرنسية مع فرنسا، إلى مثابرة النظام الديكتاتوري على تطبيق السياسة المتوسطية التي صيغت في العام ١٩٠٧.

غير أنّ العلاقات مع إيطاليا، وهي القوة المنافسة في حوض المتوسّط، لم تلبث أن تصلّبت مع إعلان الجمهورية في أسبانيا. وإذا كان التفاهم الفرنسي الإنكليزي قد أدّى إلى تحجيم القوّة الاستراتيجية لجزر الباليار بالنسبة للقوتين، فإنّ أطماع الهيمنة الإيطالية لجأت إلى إعادة تفعيل هذا الموقع المتقدّم الذي يهدّد بقطع وسائل اتصال فرنسا بمستعمراتها في شمال إفريقيا. لقد سعت الفاشستية، وبكل الوسائل، لمحاربة سياسة الحياد المؤيدة لفرنسا التي تنتهجها مدريد وذلك عبر خلخلة استقرار نظام الحكم الجديد بمساعدة مجموعات متآمرة من اليمين المتطرّف. لذلك لم يكن مستهجناً، عند اندلاع الحرب الأهلية، أن تعمد حكومتا فرانكو وموسوليني إلى التشاور بغية تنسيق جهودهما حول القضايا المتعلّقة بالمصالح المشتركة، وخاصّة في نطاق المتوسّط الغربي. وعلى الرغم من أن إيطاليا، وبموجب بروتوكول ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦، تعهّدت ضمان استقلال وسلامة الأراضي الأسبانية، فإنّ الخشية من تورط أكبر للنظام الفاشستي في الحرب (لقاء حصوله بالمقابل مثلاً على قواعد في جزر الباليار) قد حثّ بريطانيا على توقيع «ميثاق شرف» مع إيطاليا في ٢ كانون الثاني/يناير ١٩٣٧، يضمن بقاء الوضع القائم في المتوسّط على ما هو عليه (وهو تحييد جرى تدعيمه بخطّة الإشراف البحري الذي فرضته لجنة عدم التدخّل منذ ١٩ نيسان/أبريل ١٩٣٧)، هذا من جهة، كما حثّها، من جهة أخرى، على أن تعقد، في ١٦ نيسان/أبريل ١٩٣٨، اتفاقية أمن في هذا النطاق، وأخيراً، في ١٤ أيلول/سبتمبر التالي، على الاعتراف بتكافؤ الحقوق المطلق في النطاق. وعلى أثر اتفاقية ميونيخ، أدّى التقارب الإيطالي الألماني بدلالته الواضحة («ميثاق الفولاذ» المعقود في ٢٢ أيار/مايو، وغزو ألبانيا في نيسان/أبريل ١٩٣٩) إلى إرغام فرنسا، التي

عوّلت، حتّى ذلك الوقت، على إمكان عقد «ميثاق متوسطي» كبير من شأنه أن يشمل الأمم المحاذية (أسبانيا، اليونان، بريطانيا العظمى، إيطاليا، يوغوسلافيا وتركيا)، على تركيز قوتها البحرية في المتوسّط الغربي، وعلى التعاون مع بريطانيا العظمى في المنطقة الشرقية. غير أنّ هذا العمل جاء متأخراً ولم يحل دون نشوب النزاع.

كان الرئيس مانويل أثانا (Manuel Azaña) يشير، من منفاه، إلى أن موقف أسبانيا الدولي خلال الثلث الأول من القرن (موقف حياد، لكنّه، في الحقيقة، موقف رضوخ للتفاهم الفرنسي الإنكليزي) كان بمثابة رهان سياسي سهل، لكنّه واجه أزمة مع بروز المنافس الإيطالي في المتوسّط، ومع إعداد المعسكر الفرانكوي لبرنامج في السياسة الخارجية يتصف بالعداء لفرنسا وبريطانيا العظمى، أي برنامج رجعي ومؤيّد للنزعة الجرمانية (١١٥). فمنذ خطواته الأولى، أعلن نظام الحكم الجديد عن مطالبه الإقليمية التي لن تتحقّق إلا على حسابِ فرنسا وإنكلترا : استرداد جبل طارق، الإشراف على طنجة، بسط نظام الحماية الأسباني حتّى فاس، لا بل بسطه على مجمل الأراضي المغربية وعلى منطقة وهران. هكذا كان من الواضح، قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، أن أسبانيا قد تلاقي صعوبات كبيرة في الحفاظ على حيادها في نزاعٍ متوسطي وشيك كانت تبدو فيه فرنسا الضحية الاسترضائية لاتفاقٍ بحري معقودٍ بين الإنكليز والإيطاليين في العام ١٩٣٨ (١١٦). ولكن مع المنعطف المفاجىء الذي شهده النزاع إثر دخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا، أصبح «حلم فرانكو الإفريقي» (المقتصر على احتلال طنجة في حزيران/يونيو ١٩٤٠) مستحيلاً بسبب تطلّعات الهيمنة الإيطالية في المتوسّط، من جهة، ومن الجهة الأخرى، بسبب الاتفاق بين الرايخ وحكومة فيشي الذي ينصّ على الحفاظ على كامل الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية. وبات التخلّي نهائياً ومعلناً عندما أطلقت «عملية المشعل» في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٢ ، ونزلت القوات الإنكليزية الأميركية

في إفريقيا الشمالية – وعلى مقربةٍ من الممتلكات الأسبانية، على نحوٍ يدعو للقلق – لكي يصار، انطلاقاً من تونس وشمال ليبيا، إلى ضرب «النطاق الحيوي» لأوروبا المحتلّة. وقد تسبّبت نهاية الحرب بمنعطف دراماتيكي في الساحة المتوسطية، بما أدّت إليه من تغيّر جذري في موازين القوى في المناطق الوسطى والشرقية، مع بروز أطرافٍ جديدة : يوغوسلافيا وتركيا، وخاصّة روسيا والولايات المتحدة. أمّا في النطاق الغربي فقد مهّد أفول القوى الأوروبية لنهضة الحركات القومية، الاستقلالية العربية الجامعة، وما يعنيه ذلك من غموضٍ نسبيّ يحفّ بمستقبلِ الممتلكات الاستعمارية.

الحوض المتوسطي الحالي بوصفه كُلاً ناشئاً: هل هو مجال للتعاون أم نطاق أمن ؟

في غضون العقد الممتدّ من عام ١٩٤٦ إلى العام ١٩٥٦، تحوّل المتوسّط، الذي اعتبر «البحيرة الأوروبية» الكبرى بين ١٨٣٠ و١٩٤٥، إلى واحدٍ من الحدود الأكثر اضطراباً في فترة الحرب الباردة، حتّى لو تركّز الاهتمام الدولي على الشرق الأقصى وعلى أوروبا الوسطى. ذلك أن الأزمات الداخلية في اليونان وتركيا وإيران، ومسارات التحرّر من الاستعمار الصادمة في الجزائر والمغرب وتونس، وانبعاث «المسألة الشرقية» الدهرية مع قيام دولة إسرائيل، وصعود الحركات العربية والإسلامية الجامعة، قد دفعت أسبانيا إلى البقاء على حالٍ من الترقّب، خاصّة وأنها كانت قد خرجت حديثاً من حربٍ أهلية وبقيت معزولة من قبل المنتصرين في الحرب العالمية الثانية. غير أن هذا لا يعني أنها تخلّت، على الصعيد الدبلوماسي، عن استغلال موقعها الاستراتيجي كوسيلةٍ لانخراطها غير المباشر في المجتمع الدولي الجديد. وإلى ذلك كانت أسبانيا قد لعبت دوراً ضامناً للاستقرار في «مشكلة حوض المتوسّط»، ولم تكن يوماً نقطة الخلاف هذه منفصلةً عن اندلاع الأزمات الأوروبية الكبرى. لذا حاول نظام فرانكو، في مواجهة الولايات المتحدة، وهي القوة الغربية الجديدة،

أن يوظّف صورته كمعقلٍ لمعاداة السوفيات، إضافةً إلى ما يتمتّع به هذا المعقل من موقعٍ استراتيجي بين المتوسط والأطلسي، وبين أوروبا وإفريقيا، وأخيراً بين أميركا والطريق البحرية العالمية الوحيدة التي تحاذي المتوازيات فضلاً عن وقوعها في نطاقٍ معتدل [١١٧]. وعلى الفور، إثر فشل المشروع «الأوروبي» بحسب صيغة «أوروبا الوسطى» الهتلرية، أشار الدبلوماسي كاميلو بارثيا تريلّيس (Camilo Barcia Trelles)، على نحوٍ غامض، إلى أنه بين المحاولة ذات النزعة القارية التي سعت إليها أسبانيا خلال المرحلة الأولى من الحرب وبين الإسقاط البحري (الأطلسي أو المتوسطي)،

> «يجب أن يُعطى البحر الأولوية إزاء القارّة، كمعيارٍ للتوجّه.» [١١٨]

كان ذلك يعني عودةً ضمنية للضرورات الاستراتيجية ذات الطابع الدفاعي التي وسمت السياسة المتوسطية لأسبانيا في الماضي القريب. وبعد ذلك ببضعِ سنوات، كان الماركيز دي مولهاثن (Mulhacen) يدافع عن رأي مشابه حول ضرورة تطوير نشاطٍ أكثر حيوية في المنطقة:

> «المتوسّط، بحر الحضارة هذا، والعامل الجوهري في صون أوروبا وضمان السلام فيها، ليس أقلّ أهمية بالنسبة لأسبانيا التي تمتلك، بواجهتيها البحريتين، الأطلسية والمتوسطية، موقعاً استراتيجياً مميّزاً من أرفع الطرز، ما يفرض عليها، بدورها، واجباتٍ لا فكاكَ منها، ومن ضمنها سياسة خارجية وسياسة بحرية وجوية منسجمتان مع المصالح الدائمة للأمّة.» [١١٩]

وفي سياق هذا التفعيل الجديد للوجود الأسباني في هذا النطاق يندرج إنشاء المعهد الأسباني العربي للثقافة، في عام ١٩٥٤، والذي أنيطت به مهمّة «إعادة وصل العالمين الثقافيين العربي والأسباني عبر تنشيط وتشجيع التعاون الوثيق بين الثقافتين» [١٢٠]، ثمّ تأسيس فرعٍ للدراسات الإفريقية والشرقية في معهد الدراسات

السياسية، أو المشروع المضاد لتأسيس معهدٍ للدراسات المتوسطية يكون مقرّه في مدريد أو برشلونه. على أن تكون المهمّة المناطة به

«أن يرسّخ في أذهان الشبيبة معرفة العوامل الأساسية التي تحكم موقعنا في بحرنا، وفي المقام الأوّل، أن يدرّس تاريخ هذا البحر في مختلف أوجهه.» (١٢١)

تاريخٌ راح يتسارع، في فترة الخمسينات، على نحوٍ لافت. لطالما تكيّفت السياسة المتوسّطية، ومنذ مطالع القرن، وفق الوجود في المغرب كقوّةٍ حامية، ولكن بدءاً بالأربعينات كان المجتمع الدولي قد هدأ، على نحوٍ ما، بفضلِ النشاط الدبلوماسي الذي بذل باتجاه البلدان العربية. لا شكّ في أنها كانت سياسة مشوّشة وبلاغية (وقد ترجمت بحوادث طريفة، كالإصرار على وجود «الحرس الموريسكي» لفرانكو في الاحتفالات الرسمية، أو بأحداثٍ على قدر أكبر من الأهمية، كإنشاء معهد الدراسات الإفريقية في إطار «المجلس الأعلى للبحوث العلمية» في عام ١٩٤٥) وموجّهة أساساً لتعويض الإهانات التي حصدتها في مناسباتٍ أخرى، وغايتها، على المدى القريب، الحصول على الدعم الضروري الذي يتيح لها عضويةَ الأمم المتحدة. غير أن تطورات الأحداث المستجدة على الساحة الدولية أتاحت لهذه العملية التي لا تتقوّم إلاّ بموقعٍ معنوي، أن تؤدي إلى نتائج أكبر بكثير مما كان متوقعاً. ومما لا شكّ فيه أن التدخل الكارثي الإنكليزي الفرنسي في السويس عام ١٩٥٦، وسياقات زوال الاستعمار الصادمة التي أرغمت هاتان القوتان على اتباعها في الشرق وفي منطقة جنوب المتوسّط (خاصّة في الجزائر والمغرب، فيما يعني فرنسا) قد أثّرت عميقاً في صوغ السياسة الأسبانية. ومع ذلك فقد حسّنت كثيراً من سمعة أسبانيا في أعين الأمم المحاذية، وعلى الأخصّ بفضل الموقف المتسامح الذي اتخذ من مسار استقلال المغرب. الحقيقة أن السياسة المغربية قد تميّزت بعدم الثبات وبترجّحها الدائم بين أشكال التعاطف مع النزعة القومية المغربية (وخاصّة حيال حزب

«الاصلاح» وزعيمه عبد الجليل توريس الحاضر في نطاق تطوان)، وبين الالتحاق بمشروع نزع الاستعمار الذي قادته الولايات المتحدة أو التقيّد بالالتزامات التاريخية تجاه فرنسا. إنّ ظرفاً بمثل هذا الالتباس لم يتح اجتناب النهاية الدموية في العام ١٩٥٨، لنظام الحماية في الصحراء وفي إفني : «آخر حروب إفريقيا». إنّه نزاعٌ مموّه جرى تحسينه بعناية أمام الرأي العام الذي كان لا يزال خاضعاً لذكرى حرب الريف المأسوية.

وضعت نهاية التدخلات في المغرب حدّاً للوجود الكولونيالي الأسباني، الذي دام قرناً من الزمن، في ذلك النطاق، ومعها حلّ أفول المتخيّل الدهريّ «للمصير الإفريقي»، المبرّر في المراجع التاريخانية «للحملة الصليبية على الكفّار». وحلّ محلّ التصوّر السلبي للبيئة المغربية بوصفها «عبئاً ثقيلاً على كاهل العرق الأبيض»، موقفٌ بنّاء وأكثر احتراماً حيال إفريقيا الشمالية؛ وهو السلوك الذي تجسّد، على المستوى العملي، برغبةٍ ما في التعاون مع البلدان المستقلّة حديثاً، ليس مصدرها اللامبالاة أو نزعة أبوية بل الحاجة إلى استمرار التمتّع بمصادر الثروة كالمحروقات في الجزائر والثروة السمكية في المغرب. بدأت أسبانيا في صوغ رؤية أكثر عمومية لمشكلات المتوسّط، وإن جرى ذلك، مرّةً أخرى، بمعزلٍ عن البلاغة التاريخانية «للصداقة التقليدية مع الشعوب العربية». فنظراً للمردود الهزيل لمصالح وتطلّعات أسبانيا في هذا النطاق، قد يجدر التساؤل، على غرار ما فعله الدبلوماسي ميغيل أنخيل موراتينوس، عمّا إذا كان لأسبانيا حقاً، في زمننا المعاصر، سياسة متوسطية بالمعنى الحرفي للكلمة، أم مجرّد بعدٍ متوسطي (ليس هو الأهم بالطبع) في سياستها الخارجية [١٢٢].

اتسمت الستينات بما سمّي بفترة الانفراج، وذلك بفضل زوال الاستعمار وانخراط أسبانيا البطيء في المؤسسات الدولية. وحافظ نظام فرانكو على دور دبلوماسي أكثر نشاطاً. في تلك الفترة، دعا إلى التشاور بين البلدان المحاذية للمتوسّط بوصفه (أي التشاور)

بديلاً عن دور «الشرطي» الذي تؤدّيه، في نطاق هذا البحر، قوى من خارج المتوسّط، أي، على وجه الدقّة، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. فعلى الرغم من التقارب مع البلدان العربية، بقيت السمة الغالبة على الدبلوماسية الأسبانية هي الخشية. ذلك أن إرهاصات الاستقلال المغربي كانت قد أقنعت نظام الحكم بأن إفريقيا الشمالية هي بؤرة للتوتّر من شأنها أن تولّد أزمة إقليمية حادّة، قد تكون أسبانيا هي الخاسر الأكبر فيها نظراً لاحتفاظها ببعض الممتلكات التي تطالب بها المغرب بإلحاح. بحيث أنّ التوتّر الناجم عن المشكلات الإفريقية وعن النزاع حول جبل طارق بقي، عملياً، غالباً على السياسة المتوسطية لأسبانيا حتّى وفاة فرانكو ونشوب أزمة الصحراء بين ١٩٧٥-١٩٧٦.

في مطلع السبعينات تراءت أزمة جديدة. وكان سبب الأزمة هو المشروع التوسعي الوطني البورجوازي الذي رعته الدول العربية الخارجة من حقبة الاستعمار، والتي واجهت نخبها التقليدية صعوباتٍ كبيرة في مواجهة التحديات التي فرضها التحديث الاقتصادي : إلغاء نظام الحماية، نموّ الاستثمارات المنتجة، التصدّي للتباين الاقتصادي وزيادة معدّلات الولادة، إلخ... لقد رأى عدد من المحلّلين في هذا الإخفاق الاقتصادي والسياسي لمجتمعات جنوب المتوسّط، عقبةً أمام السيطرة الاستعمارية الأوروبية. لا بل إنّ الخبراء أجمعوا على الإشارة إلى أن مناطق الشمال والجنوب تعاني من مشكلات اقتصادية متشابهة : معدّل مرتفع من البطالة المقنعة، نقص في الطلب الداخلي، تخلّف في بنية الاستهلاك، نقص في رأس المال، تبعية للخارج على المستوى المالي والتقني، معدّلات انتاج منخفضة، وتدني الدخل الفردي، إلخ... وكلّ هذه تؤدي إلى إبطاء سيرورة نموّ السوق الاقتصادية الأوروبية في مقلبها المتوسّطي [١٢٢]. فتكاثرت الدعوات إلى الحوار بين الشمال والجنوب، لمعالجة هذا الوضع. وقد أشرفت على أشكال هذا الحوار منظمات كالأمم المتحدة، واليونيسكو، ونادي روما، إلخ... وجاءت الصيغة السحرية الجديدة بالتعاون من أجل التنمية :

وهي استراتيجية كانت تسعى إلى تلطيف المواجهة الدهرية بين متخيّلات متناقضة مع تطبيق جرعاتٍ كبيرة من الواقعية الاقتصادية.

كان تماهي أسبانيا مع نجاحٍ نموذجٍ للتنمية قابلٍ للتطبيق في بلدان الجنوب، غالباً ما يتناقض مع رؤيةٍ متخلّفةٍ للحوض المتوسّطي. عام ١٩٧١، لم تتخلَّ الحكومة عن الاحتفال بذكرى معركة ليبانتي، وإن جرى ذلك باستبدال صورة العملاق التركي المخيفة بصورة «طاغية الشرق»: أي الاتحاد السوفياتي [١٢٤].

بمضيّ عام، وفي ظلّ احتدام أزمة الشرق الأوسط إثر حرب الأيام الستّة والتوغّل الإسرائيلي داخل الأراضي اللبنانية، لم تكفّ الصحف الأسبانية عن الإشارة إلى

> «أنّ الرسالة المتوسطية لأسبانيا، البلد الذي جعل البحر قبلته، هي شرعية ومفيدة (...) فقد تشكّل المعاهدات الدولية حول التعاون الثقافي كتلك التي جرى توقيعها مؤخراً مع عددٍ من البلدان المحاذية للمتوسّط، أداةً مثالية لتوثيق الروابط، ذلك أن الروابط ذات الطابع السياسي معقّدة جداً اليوم ولأسباب يعرفها الجميع (...) من الضروري الغوص في عملٍ مشترك ينبغي أن يشمل أيضاً بلداناً غير عربية في إطار هذا التعاون الثقافي الوثيق الذي نطمح إليه.» [١٢٥]

إذ اتضح، في ذلك الوقت، أن العمل الثقافي هو الأقلّ كلفةً والأقلّ التزاماً من بين السياسات الممكنة في المتوسّط، وخاصّة في الفترة التي كانت تشهد بدايات النتائج العملية لأزمة النفط. في عام ١٩٧٣، وخلال الجمعية العامّة لمجلس المقاطعة للحركة الفرانكوية في ألميرا، جرى التقدّم باقتراحٍ لإنشاء جامعة دولية لشبيبة المتوسّط، تهدف إلى «الاندماج المشترك، وإلى نشر الثقافات المتوسطية». وكانت الأسباب التي أفصحَ عنها كتبرير لهذا الاقتراح، تندرج في سياق النزعة الماهوية التاريخانية التي دبّجتها البلاغة الفرانكوية لتبرير كلّ أشكال التدخّل في الخارج :

«كانت أسبانيا هي أميركا العصور القديمة في نظر شعوب شرق المتوسّط كافة، غزاها اليونانيون، والفينيقيون والرومان، كما غزاها برابرة الشمال وغزتها شعوب إفريقيا الشمالية. لقد حدّدت غزوات هذه الشعوب – مع الإيبيريين الأوائل –، عرقاً، هو العرق الأسباني، وميزته الرئيسية هي أنه يتفهّم كلّ الشعوب التي تجري في عروقها الدماء نفسها. إنّ أسبانيا هي الشعب الوحيد، في هذه الفترة الحاسمة لمصير البشرية، الذي يملك هذه القدرة على الفهم والتي تجعله قادراً على إنجاز هذه المهمّة النبيلة.» (١٢٦)

كان المشروع يلحظ تشييد مدينة متوسطية، على صورة المدينة الجامعية في باريس، تتسع لستة عشر مجمعاً لمختلف البلدان. إذ كان الغرض من هذا التصميم وضع اللمسة الأخيرة على برنامجٍ طموحٍ ذي بعدٍ جامعي يشتمل على محاور الاهتمام المركزية لنشر الثقافة الأسبانية، من طريق استكمال ما كانت تمثّله جامعة مننديث بيلايو دي سانتندر الدولية للطلاب الأوروبيين، ومعهد الثقافة الأسبانية للطلاب الإيبيريين الأميركيين. كما شهدت تلك الفترة أيضاً نشاطاً ملحوظاً للمؤتمرات المتوسّطية التي كانت تمثّل جزءاً من برنامج اللقاءات الفكرية الدولية التي يجري تنظيمها بإشراف Dowling College النيويوركية، وإدارة المؤرخ نورمان هولوب (Norman Holub)، بمشاركةٍ أغلبية لأساتذة أنكلوساكسونيين (١٢٧). أمّا الوسط الأدبي فقد شهد، بين الخمسينات والسبعينات، ازدهاراً لنصوصٍ من أدب الرحلات تتمحور حول أسفارٍ في المتوسّط، كنصوص سيزار كونثاليث روانو وأميليو كالي إيتورينو وألبرتو ديلغادو وخوسيه ماريا جيرونيلا، التي تتسم بالوصفية وحيث تتضافر النزعة الكلاسيكية اليونانية والإكزوتيكية التركية والتذكارية المصرية أو روحانية الأراضي المقدّسة، لتدرجها في خانة الأفكار النمطية. ولعلّ أكثر الأمثلة مثاراً للفضول من حيث تشبّع مناخاته بالأجواء المتوسطية، هو مثل الغاليسي ألفارو كونكويرو Álvaro Cunqueiro (١٩١١–١٩٨١) الذي كان، في كتاباته الزاخرة بالفانتازيا

والغموض والسخرية (Las mocedades de Ulises ، ١٩٦٠ ؛ و Cuando el viejo Simbad vuelve de las islas ، ١٩٦٢ ؛ و Un hombre que se parecía a Orestes ، ١٩٦٩)، يتحدّث عن البحر بوصفه واقعَ حياة، بوصفه صدىً للمصير، حاضن الخرافات والأساطير، ويجعل للمتوسّط خارطة غرائبية، لا بل يجعله مسكة السياق لأحداث وسردياتٍ على قدرٍ كبير من التنوّع والتنافر [١٢٨].

لم تكن التأملات ذات البعد الوطني التي تناولت المتوسّط خلال فترتي السبعينات والثمانينات، لتلحظ الحوض المتوسطي بوصفه عالماً في حدّ ذاته، بوصفه كلاً أو ساحةً عالمية، بحسب مقاربة بروديل، بل بوصفه ملحقاً – ليس هو الأكثر أهمية في حركة اندماج النطاق الأوروبي الأطلسي أو في سياق الصَدعِ بين الشرق والغرب [١٢٩]. بدءاً بالثمانينات صرف الأسبان انتباههم عن متوسّطٍ في حالٍ من الأزمة المستمرّة، لينكبوا على مسألة الانخراط في المؤسسات السياسية والعسكرية لأوروبا الغربية، وقد تمكنوا من تحقيقِ غرضهم في أواسط العقد. وترك أمر المتوسّط لبروكسيل التي كانت تحدّد المسار الذي ينبغي اتباعه على صعيد العلاقات مع الجنوب. وسوف يكون التماسك السياسي الاقتصادي وإرادة الدفاع المحورين اللذين سيحددان لاحقاً علاقات أوروبا مع محاوريها الجنوبيين، الأمر الذي أدّى إلى بروز مفهومين للمتوسّط : المتوسّط بوصفه نطاقاً استراتيجياً للهيمنة والمواجهة، أو بوصفه مجالاً حيوياً للتعاون [١٣٠].

غيّرت السياسة المتوسطية لأسبانيا، الوريثة المباشرة لسياسة الفرانكوية الموالية للعرب، من طابعها غير أنها لم تغيّر أهدافها : لقد غدت أكثر نشاطاً وأكثر هجومية، وزادت من رؤيتها الإجمالية سواء لما يتصل بالطابع الجغرافي أم لما يتصل بالمحتوى، باعتبار أن غايتها هي الدفاع عن مصالح أسبانيا الحقيقية. وكانت أدواتها مأسَسَة الحوار السياسي وانتهاج سياسة تعاون واسعة في إطار السوق الأوروبية المشتركة. أمّا أهدافها فكانت تتمثّل بتدعيم

استقرار المغرب عبر انخراطٍ إقليمي في اتحاد المغرب العربي والتنمية السياسية والاقتصادية[١٣١]. ومع انضمامها إلى السوق الأوروبية المشتركة، لم تصبح الرؤية الأسبانية للمتوسط أكثر عمومية وحسب، بل أصبحت أيضاً أكثر إيجابية، الأمر الذي انعكس من خلال تنمية التعاون بوصفه حماية لازدهارها الخاص. وهو الموقف المميّز للمجال المتحدي الأوروبي منذ نشأته. منذ العام ١٩٦٢، كانت السوق الأوروبية قد أولت أهمية كبرى لما سمّي «بالبلدان الثالثة» في المجال المتوسّطي، وللمستعمرات الفرنسية السابقة على وجه التخصيص. وفي العام ١٩٧٢ شهدت السياسة المتوسطية الإجمالية إندفاعةً جديدة. ومع ذلك، مُنيَت بفشلٍ ذريعٍ يعود، في قسطٍ منه، إلى أزمة سياسية واقتصادية نجمت عن النزاع في الشرق الأوسط[١٣٢]. أمّا بشأن الجانب الدفاعي لمسار الانخراط هذا، فقد ألحّ مجلس الأمن والتعاون في أوروبا، الذي انعقد في العام ١٩٧٥ في هلسنكي، على واقعٍ أنّ

> «الأمن في أوروبا هو على ارتباطٍ وثيق بأمن المنطقة المتوسطية بمجملها»

ومن زاوية النظر هذه، جرى التشديد على ضرورة

> «صون وتطوير الصلات والحوار الذي بدأه مجلس الأمن والتعاون مع الدول المتوسطية غير المشاركة، حتّى يشمل كلّ دول المتوسط، بهدفِ بناء السلام، وتخفيض القوات المسلحة في المنطقة، والعمل على تخفيف بؤر التوتر فيها وزيادة معدّل التعاون.»

وقد أعقب هذه التصريحات، وخلال اجتماع بلغراد (١٩٧٧–٧٨)، إنشاء اللجنة المتوسطية في إطار مجلس الأمن والتعاون الأوروبي، الذي عقد أول اجتماعاته في فاليت عام ١٩٧٩. ولكن سرعان ما جوبهت أعمال هذه اللجنة بعقباتٍ تمثّلت برفض مجلس الأمن والتعاون الأوروبي توسيع تدابير الأمن لتشمل المتوسّط وبعدم الاعتراف للدول المحاذية في الحوض الجنوبي بحق

المشاركة التامّة فيه [١٣٣]. وخلال اجتماع مدريد عام ١٩٨٣، كرّر المجلس التعبير عن رغبته في تبني التدابير الآيلة إلى الحدّ من بؤر التوتر، وتدعيم السلام والأمن في النطاق، عبر اتخاذ تدابير تهدف إلى تعزيز الثقة، وتطوير علاقات حسن الجوار، مع النظر في إمكان عقد اجتماعاتٍ خاصّة بين الدول المحاذية.

بناءً عليه، وعلى الرغم من بعض العوامل المعرقلة، كانتصار الخميني في إيران الذي حثّ على انتشار الأصولية الإسلامية، والغزو السوفياتي لأفغانستان، والحرب العراقية الإيرانية أو الحصار الإسرائيلي لبيروت، أقيمت بعض قنوات الاتصال الناجعة، كالحوار الأوروبي العربي الذي انطلق عام ١٩٧٤، ثمّ توقف مع أزمة الخليج، أو اجتماع التعاون الأقليمي في المتوسّط (الذي عرف تحت عنوان منتدى الحوار «٥ + ٥» بسبب عدد الشركاء في جهتي المتوسّط : فرنسا، أسبانيا، البرتغال، إيطاليا ومالطا، وكذلك الجزائر وليبيا والمغرب وموريتانيا وتونس) الذي أطلقه إعلان روما في ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠، لكنّه شهد نكسة فورية نظراً للتماسك المحدود في اتحاد المغرب العربي (الذي أنشىء عام ١٩٨٩)، وبسبب تقلبات حرب الخليج وتأزّم العلاقات بين ليبيا وأميركا الشمالية [١٣٤].

بعد تعزيز الجناح المتوسطي من السوق الأوروبية المشتركة، على أثر انضمام أسبانيا والبرتغال عام ١٩٨٦، أسهمت بلدان الجنوب الأوروبي في تفعيل «البعد المتوسّطي» كعامل توازن إيديولوجي داخل أوروبا، لأنها كانت تخشى، أن يصار، من دون هذا التأكيد القوي لهويتها الثقافية الجنوبية، إلى ضمّها، وإلى تحديدٍ للقارة يفتعله الشمال لغرض توسّعه باتجاه الشرق تحت راية ألمانيا [١٣٥]. هكذا وضعت الأسس، في العام ١٩٨٨، لإنشاء منتدى متوسطي أتيحت عضويته «للبلدان الثالثة»، وارتسمت، في العام ١٩٩٠، السياسة المتوسطيّة المنقّحة لفترة ما بين ١٩٩٢ و١٩٩٦، والتي فُتِحَت بموجبها، علاوةً على المساعدات المالية التقليدية

في صيغة قروض، اعتمادات لكي تُدعَمَ، وعلى نحوٍ لا مركزي (برامج واتفاقيات أوروبية متوسطية من جيلٍ جديد)، جهود التعاون، والتنمية، والحفاظ على البيئة والمظاهر الثقافية كتكثيف التبادل بين المؤسسات الجامعية والعلمية (Med - Campus)، وبين وسائل الاتصال (Med - Medias) ، والتعاون بين الجماعات المحليّة (Med - Urbs) كما التعاون من أجل تطوير المنشآت (Med - Invest) [١٣٦]. وبموازاة ذلك، أدّى وعي الرأي العام لمشكلة تلوّث البحر والأبحاث التي أجريت من قبل هيئاتٍ دولية، إلى ازدياد الضغوط على الدول لتطبيق سياسة محافظة على البيئة، ترجمت في العام ١٩٨٥، بخطّة العمل المتوسّطي لمكافحة تلوّث البيئة، والتوقيع، في العام ١٩٨٦، على ميثاق برشلونة.

إلى هذا الاسترداد للثقلِ المتوسطي من قبل السوق الأوروبية المشتركة، يُضاف الظرف الدولي المواتي في مطلع التسعينات. ذلك أنّ تقدّم سياق العولمة ونهاية التصلّبات الناجمة عن الحرب الباردة قد أديا إلى تفعيل مشكلات عدم استقرار الحدود الجنوبية لأوروبا والذي كان من شأنه أن يطاول وسطها. كما جرى التنبّه إلى المصالح الاقتصادية والسياسية والثقافية التي غيّبتها طويلاً الضرورات الاستراتيجية لسياسة الكتلتين. وأتاح نطاق الانفراج الجديد تدعيم ساحة دوليةٍ باتت أكثر انفتاحاً على مزيد من التنافس في ميادين التجارة والعلوم والتكنولوجيا، ما أرغم الدول على صبّ جهودها على قطاعات التعاون والتوسّع الأكثر طبيعية، أو حيث يتضح أنّ مصالحها هي الأهمّ. وكانت تلك هي حالة المتوسّط خاصّة، بالنسبة لبلد كأسبانيا الذي تجعله ميزاته التاريخية والثقافية والجغرافية، مدعواً للتدخّل بوصفه المحاور المفضّل في الحوار بين الشمال والجنوب، وذلك على الرغم من بعض بؤر النزاع العالقة (جبل طارق، سبتة ومليلة).

خلال احتدام أزمة الخليج، أشار وزير الخارجية الأسباني فرنسيسكو فرنانديث أوردونيث، إلى أنّ المغرب يمثّل الأولوية

بالنسبة لأسبانيا. فإلى جانب المساعي الثنائية وراء التطبيع الدبلوماسي، كمعاهدة الصداقة وحسن الجوار والتعاون مع المغرب (١٩٩١)، تميّزت السياسة المتوسطية لأسبانيا برؤية إجمالية لافتة. إذ تولّت الدعوة إلى اتباع سياسة أفقية أوروبية متوسطية مع مشاركة كلّ بلدان الحوض. وقد تجسّد هذا المسار بمبادرات مهمّة، منها ما جرى في بالما بمايوركا، في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠، عند إطلاق فكرة مجلس للأمن والتعاون في المتوسّط، مستلهمٍ من تجربة مجلس الأمن والتعاون الأوروبي، لغرضِ

> «تفعيل تنمية اقتصادية واجتماعية متوازنة في المنطقة، عبر التخفيف من بؤر عدم التوازن الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية والسياسية والثقافية.» [١٣٧]

كانت الوثيقة الإيطالية الأسبانية تبرّر الدعوة إلى قيام مجلس أمن وتعاون متوسطي، بموجباتٍ ثلاثة : الجوار الجغرافي والتاريخي، والحاجة إلى الأمن في مواجهة عدم التوازن الديموغرافي والديموقراطي والتنموي بين الضفتين، والضرورة الملحّة في أن تعمد أوروبا إلى وضع آليةٍ لاتقاء الأزمات لكي لا تجد نفسها في موقعٍ هامشيّ، كما كانت هي الحال خلال «أزمة الخليج» [١٣٨].

> «المتوسّط هو شرط ضروري لاستقرار أوروبا : أو بعبارات أوضح، لن تكون أوروبا آمنة ما دام المتوسّط غير مستقرّ.»

كما امتدحت الوثيقة القيمة التاريخية للحوض بوصفه عنصراً مكوّناً لأوروبا الحديثة :

> «يمثّل المتوسط امتداداً جوهرياً لأوروبا : لا يمكن فهم أوروبا من دون المتوسّط، ولذا لا يمكن لأوروبا أن تغفله. ذلك أن أوروبا، الجنوبية كما الشمالية، أوروبا التي نحن في معرض استعادتها وإعادة بنائها، قد ولدت في المتوسّط. في بحرنا المشترك هذا، بحثت أوروبا ووجدت العناصر الأساسية لهويتها : العقل،

الأخلاق، والقدرة على التعايش. فهذه هي العناصر الثلاثة التي تعرّف كيان أوروبا، وما تجد فيه قارتنا القديمة جوهرها، وجذورها الأولى، لا بل جذورها الأعمق. بناءً عليه، فإنّ الابتعاد عن المتوسّط يساوي بالنسبة لأوروبا استئصال الجذور. والاقتراح المعاكس، ليس أقلّ صحّةً : فكلّما اقتربت أوروبا من المتوسّط اقتربت من أن تكون ذاتها. لا بل سأقول أكثر من ذلك : إني مقتنع بأن استرداد أوروبا لن يبلغ تمامه إلاّ عندما تجد أوروبا نفسها، وقد عاودت اكتشاف جذورها، في قلب المتوسّط.»

بعد سلسلةٍ من التحفّظات صادرة عن فرنسا بشأن الإجراءات التي ينبغي اتباعها، وعن الولايات المتحدة بشأن المحتوى نفسه، صادقت كلٌ من أسبانيا وفرنسا والمغرب والجزائر، في العام ١٩٩١، على مذكّرة مؤتمر الأمن والتعاون المتوسّطي التي قدّمت للأمم المتحدة. وفي شباط/فبراير، أقرّت مجموعة الاثني عشر، مع بعض التحفّظات، على عقد المؤتمر، كما فعل الأمين العام لحلف شمال الأطلسي في غضون الشهر التالي [١٣٩].

أمّا الحدث البارز الثاني في هذا المسار الذي انطلق من بالما، فتمثّل بالمؤتمر البرلماني حول الأمن والتعاون في المتوسّط، الذي عقد في مالاغا بمبادرة من البرلمان الأسباني في حزيران/يونيو ١٩٩٢. وقد وجّه إعلان مالاغا، الذي كان أوّل نصّ رسمي معتمد من قبل ممثلي الدول المحاذية لبلوغ الأهداف المرسومة، توصية للحكومات بأن تدعو، في أقرب مهلة، إلى عقد مؤتمرٍ للحكومات حول الأمن والتعاون في المتوسّط، تكون الغاية منه

«تهيئة مناخ من الأمن من شأنه أن يحثّ على إقامة علاقات حسن جوار، وإشاعة مناخٍ من الثقة المتبادلة على المدى الطويل : الحثّ على تعاون متعدّد الأشكال، مرتكزٍ على التضامن والمسؤولية المشتركة والمصلحة المتبادلة، ومولّدٍ للاستقرار، وإقامة حوار ثقافي (بالمعنى الواسع للعبارة) من شأنه أن يشيع فهماً متبادلاً أفضل، وأن يرسّخ، في كلّ المناطق، مبادىء الديموقراطية، والحريات السياسية والاقتصادية، وكذلك احترام

حقوق الإنسان.» [١٤٠]

بعد القمّة التي عقدها مجلس الأمن والتعاون الأوروبي في تموز/يوليو ١٩٩٢، في هلسنكي، وحيث قدّم اقتراحٌ بتدعيم التعاون مع الدول المتوسطية، اتخذت المرحلة التالية من مسار التلاقي هذا، والتي جرت بعد شهرين في إشبيلية، شكل سجالٍ هادفٍ إلى صوغ شرعة للمتوسّط، إلى إعلان مماثل للإعلان الذي صدر في هلسنكي عام ١٩٧٥، يتمّ فيه تحديد مبادىء السلوك الموضوعية والوسائل القانونية لبلوغ دائرة الأمن المشترك المرجوّ. وجاءت المبادىء المعلنة على النحو التالي : سيادة التكافؤ بين الدول، رفض اللجوء إلى التهديد أو استخدام القوة، عدم التدخّل في المسائل التي لا تتعلّق إلاّ بالنظام الحقوقي للدول : حلّ النزاعات بالوسائل السلمية، المساواة في الحقوق وحقّ الشعوب في تقرير مصيرها، احترام الحقوق الإنسانية والحريات الأساسية، التعاون بين الدول والالتزام، بحسن نيّة، بالواجبات المترتبة على القانون الدولي.

جاءت الأزمة الليبية، ونتائج حرب الخليج، ومن ثمّ النزاعات اليوغوسلافية والجزائرية، لتفاقم من صعوبة ترسيخ المبادرة القائلة بإنشاء مجلس الأمن والتعاون المتوسطي فلم تفضِ تدريجاً إلاّ إلى حوارٍ أوروبي متوسّطي بوصفه آلية تدعيم وحثّ على التعاون بين الأمم المحاذية. ولكن الدبلوماسية الأسبانية تمكّنت، بأية حال، أن تنسب لنفسها انتصارات محقّقة. فعلى هذا النحو أسفر دعمها لمسار المفاوضات في الشرق الأوسط عن انعقاد مؤتمر السلام للشرق الأدنى الذي جرت مرحلته الأولى في مدريد، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١، وأدّت نتائجه إلى عقد اتفاقية السلام الفلسطينية الإسرائيلية في واشنطن، في أيلول/سبتمبر ١٩٩٣. وفي العام ١٩٩٥، حقّق الاتحاد الأوروبي خطواتٍ ملموسة إلى الأمام عبر صوغه سياسةً متوسطية إجمالية فعلية. وفي ٢٧ و٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر، عقدت في برشلونة، وبطلبٍ من

الرئاسة الأسبانية للاتحاد الأوروبي، المؤتمر الأوروبي المتوسطي الذي شارك فيه ممثلون عن حكومات الاتحاد واثني عشر بلداً متوسطياً. وكانت الغاية منه الإعداد لقيام شبكة من العلاقات كفيلةٍ بتوجيه معونة الاتحاد الأوروبي لبلدان جنوب وشرق الحوض المتوسطي والتي قدّرت بنحو ٤ مليارات و٦٨٥ مليون إيكو (الوحدة النقدية الأوروبية). ولكي تكون هذه المعونة مجدية أكثر، تطرّق النقاش إلى مسائل متعلّقة بالأمن المتبادل (إقامة مجالٍ مشتركٍ للسلام والاستقرار يتيح تسريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية للنطاق)، وإيجاد «شراكة إجمالية أوروبية متوسطية» بفضل تدعيم الحوار السياسي لصالح الأمن والسلام، وتطوير تعاون اقتصادي ومالي، والعمل حتّى العام ٢٠١٠ ، على إقامة مجال اقتصادي لازدهارٍ مشترك قائم على التبادل التجاري الحرّ. وقد جرى التشديد، في مؤتمر برشلونة، وبصورةٍ خاصّة، على البعد الاجتماعي والثقافي والإنساني للعلاقات بين بلدان المتوسّط، كما جرى، من أجل تنمية الموارد البشرية، التوقيع على اتفاق تسوية يحثّ على التفاهم بين الثقافات وتبادل الخبرات بين المجتمعات المدنية [١٤١].

بحسب خبيرٍ معروف، يمكن اعتبار إعلان برشلونة، ولأسبابٍ عديدة، الخطوة المؤسسة لمتوسّط القرن الواحد والعشرين، ليس فقط لأنه أوّل اتفاقٍ متعدّد الأطراف توقّعه البلدان المتوسطية مع مجموعة الخمس عشر، بل أيضاً بسبب الطموح الذي تنمّ عنه مشاريع التعاون المرتقبة، والتي يتضّح منها الحجم الراجح المعطى للبعد الثقافي وليس للأولوية التقليدية للتكنوقراطية والمردودية في الترويج لتقنيات الشمال وأنماطه [١٤٢].

بعد المؤتمر الأوروبي المتوسطي ببضعة أيام، بين ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر وأوّل كانون الأول/ديسمبر، عقد المنتدى المدني أوروميد، في برشلونة، اجتماعاً ضمّ ١٢٠٠ خبير من أكثر من ثلاثين بلداً من بلدان النطاق، كانت الغاية منه النقاش حول شروط

هذا التعاون وحول استحداث مشروعات تدفع سياقات نموّه قُدماً. لقد انكبّ المنتدى على عددٍ من أوجه الواقع المتوسطي، كالسياحة، والنشر، ووسائل الاتصال، والهجرات، والمرأة، وأرباب العمل، والتأهيل المهني، والجامعات وشبكات النقل ووسائله، وقضايا البيئة، إلخ... أمّا على الصعيد الثقافي، فقد كان لافتاً ما جرى عرضه من مبادراتٍ تهدف إلى الدفع باتجاه «المشروعات ذات الدلالة»، والتي من شأنها التصدّي للصور المشوّهة والحثّ على اكتشاف «الآخر» : فلنذكر منها، مثلاً، وضع برنامجٍ للأبحاث حول التصوّرات المتبادلة المتكوّنة انطلاقاً من النظم التربوية في الضفتين ؛ تأليف «كتاب أبيض» تصنّف فيه كلّ الأفكار النمطية المتداولة في النطاق المتوسطي والتي ينبغي أن تطّلع عليها وسائل الاتصال ؛ إنشاء جامعات حيث تعطى دروس حول المتوسّط فقط ؛ ابتكار برنامج تأهيل حول «صورة الآخر» في المجال الأوروبي المتوسطي، يكون مخصصاً للمدرسين والصحافيين والوسطاء الثقافيين وتطوير صناعةٍ للبرامج السمعية البصرية المتوسطية ذات طابع تربوي [١٤٣].

تابعت سياسة الاتحاد الأوروبي التشديد على الأوجه المرتبطة بالتعاون من أجل التنمية. فعلى أثر المنتدى المتوسطي الذي عقد في الإسكندرية، في ٣ تموز/يوليو ١٩٩٤، وجمع وزراء خارجية عشرة بلدان محاذية، أطلق المفوّض الأسباني مانويل مارين، في تشرين الأول/أكتوبر، برنامج شراكة متوسطية : خمسة مليارات وخمسمئة مليون إيكو من أجل المساعدة على التنمية وعلى إقامة نطاق للتبادل الحرّ في المغرب، وذلك بغيةَ

> «إقامة نطاقٍ من الأمن، وإتاحة ظروف متعيّنة من أجل نمو اقتصادي سريع ومستدام، وضمان مستوى مرتفع من العمالة وتضييق هوة التباينات في البحبوحة قياساً بالاتحاد الأوروبي.» [١٤٤]

غير أنّ إرادة التعاون هذه لم تترافق مع التخلّي عن الطابع

الدفاعي للعلاقات الأوروبية المتوسطية الذي كيّف، طيلة قرون، سلوك القوى المحاذية. ويرى المؤرّخ خوسيه ماريا خوبير (José Maria Jover) أنّ أحد الهواجس التي لازمت الأسبان هو

«أمن حدودٍ جنوبية أكثر انفتاحاً، ومطروقةً دولياً، وأكثر عرضةً للنزاعات من الحدود الشمالية»

ما أدّى إلى مطالبة شعبية في ضمان أمن الحدود الجنوبية [١٤٥]. وعندما حلّ جدل الشمال –الجنوب محلّ النزاع القديم بين شرق وغرب، صاغ حلف شمال الأطلسي، في العام ١٩٩٢، مفهوماً استراتيجياً جديداً يقترح إعداد قوى للتدخّل السريع، وتكثيف المناورات العسكرية في المتوسّط («مطرقة التنين» - Dragon Hammer في أيار/مايو ١٩٩٢)، وتشكيل قوة بحرية دائمة تتولّى، حصراً، السهر على أمن الخاصرة الجنوبية للحلف. فكما لاحظ سمير أمين منَدّداً، لم يعد المتوسّط هو الخاصرة الجنوبية لحلف أطلسي ضدّ الاتحاد السوفياتي، بل الخاصرة الجنوبية لحلفٍ أطلسي ضدّ الجنوب [١٤٦]. وقد أسهم التبني الفوري لصورة «التهديد الجنوبي» من قبل وسائل الإعلام الغربية في تعيين هذا «العدو الجديد» الضروري لتبرير حجم الإنفاق العسكري الهائل. ومع ذلك لقد حاول قادة حلف شمال الأطلسي والاتحاد الأوروبي الغربي تمويه السياسة الدفاعية الجديدة بتصويرها كتسوية لتطوير مجالٍ دفاعي مشترك عبر إيجاد أدوات تعاون لإدارة الأزمات الإقليمية (كما كانت حال التدخّل في يوغوسلافيا السابقة)، وإقامة «شراكةٍ من أجل السلام»، والوقاية من انتشار أسلحة الدمار الشامل وتدعيم حوارٍ مُمَأسَسٍ بين مختلف بلدان المنطقة [١٤٧].

على الرغم من أن خطر المواجهة العسكرية التقليدية في هذا النطاق تبدو، إلى اليوم، مستبعدةً، فإنّ المخاطر الناجمة عن الانفجار السكّاني، والخلل الاقتصادي والتشدّد الأيديولوجي، هي التي تستأثر بانتباه الرأي العام الغربي. فالواقع أن الإرهاب

والأصولية الإسلامية وازدياد التسلّح والهجرة الكثيفة هي ظواهر مؤثّرة، وإن لم تكن مترابطة مباشرةً فيما بينها، كعنصر قلق، وتدعّم، حين تدعو الحاجة، التصوّر الغربي لشرق محاربٍ، متعصّب واستبدادي، مساهمةً بذلك في تفعيل ردود الفعل الوراثية التي أسهمت منذ القرن السادس عشر، في بناء متخيّل مبنيّ على الأذى والتهديد، في أسبانيا، أدّى إلى استبعاد الثقافة الإسلامية عن أن تكون عنصراً مكوّناً للهويّة الوطنية. إذ لا يُرى إلى التجسيد اليومي لهذا «التهديد» (مجيء أكثر من مليونين ونصف المليون من المغاربة إلى أوروبا)، من قبل أصحاب النزعة القومية المتشدّدة وكارهي الوجود الأجنبي، بوصفه شرطاً ضرورياً للحفاظ على وتائر الازدهار الداخلي، أو بوصفه إسهاماً جديداً في ثقافة القارة القديمة، بل بوصفه «طابوراً خامساً» يهدّد الهوية الخاصّة بكلّ بلدٍ أوروبي. ليس مستهجناً إذاً أن يكون القلق حيال الإسلام قد غذّى الدعوات إلى بناء ضربٍ من «القلعة الأوروبية» (ظهرت بوادره الأولى في أسبانيا مع صدور القانون حول الأجانب في تموز/يوليو ١٩٨٥، أو من خلال توقيع ميثاق «شنغن» في حزيران/يونيو ١٩٩٠)، أو أن يصف سياسيون محافظون مرموقون موجة الهجرة بأنها غزو برابرة، أو مقارنتها، في لغةٍ استراتيجية، بالتهديد الشيوعي :

> «إذا كان الأوروبيون لم يترددوا، خلال أربعة عقودٍ من الزمن، في الاستعداد للجوء إلى الوسائل العسكرية، بما فيها أقصاها، لمواجهة تهديد مليون جنديٍ سوفياتي، فكيف لنا أن نرتاب اليوم في حقّنا في استخدامٍ كلّ الوسائل اللازمة لإزالة التهديد المتمثّل ببضعة ملايين من المهاجرين ؟ فأولئك الذين يدافعون عن الطابع الحتميّ للهجرة الكثيفة يذكّروننا بمن كانوا يؤكّدون، خلال الحرب الباردة، بحتمية الانتصار السوفياتي. ولكن هل كان هذا الأخير يهدّد هويتنا الاجتماعية والثقافية كما تهدّده اليوم موجات المهاجرين ؟» [١٤٨]

من يدعون إلى تطبيق سياسةٍ ذات طابع بوليسي، لا بل

عسكري، بوصفه الركيزة الثالثة إلى جانب التعاون الاقتصادي والسياسي في العلاقات مع الجنوب المتوسّطي، لا يستطيعون التغافل عن واقع أن أسطورة الوحدة المتوسطية قد راجت عبر صياغاتٍ قاعديّة وملتبسة : إدارة استعمارية وهيمنية، ونشاط سلمي يدعو إلى المصالحة [١٤٩]. وقد شدّد الملك خوان كارلوس على هذا الأخير في العام ١٩٩٤ :

«يتعيّن على أسبانيا أن تشارك بكلّ ثقلها في صوغ ما ينبغي أن تكون عليه أوروبا المتوسّطية، بمشاكلها وطاقتها الهائلة. ذلك أن أوروبا الجنوبية، أوروبا اللاتينية، تلك الكتلة التي يتضافر فيها، تاريخياً وعلى أكمل وجه، التماسكُ والتنوّع، تشكّل، من دون أدنى شكّ، المجال الذي من شأنه، بسبب موقعها الجغرافي وتورّطها الثقافي، أن يكون الجسر الأوروبي المشترك باتجاه المغرب وباتجاه المتوسّط الشرقي.» [١٥٠]

الواقع أنه برغم الخُطَبِ حول وجود تقاربٍ جغرافي وإثني وتاريخي أو تبادلٍ ثقافي، توصف بأنها مستمرّة منذ القرون الوسطى إلى يومنا هذا، لم يفلح أي طرف في خلق روابط من التضامن بين البلدان المحاذية. بل على الضدّ من ذلك، كانت بؤر التوتّر إلى ازدياد. لقد عجزت الدول المتوسطية عن إيجاد بنى إقليمية أو أوالياتٍ قانونية ودبلوماسية من شأنها أن تُحِلّ السلام والأمن والتعاون في النطاق كلّه. وكما يلاحظ الكاتب الكرواتي بريداغ ماتفييفيتش، أنّ أحد أسباب النقص في هذه الهيكلية الإقليمية قد تمثّل باستمرار المتخيّلات المبنية على النزعتين الماهوية والقصريّة والتي تتوسّل، كمصدرٍ لها، شرعية التاريخ والعرق والأمّة والدين بدل أن تبني تصوراً جديداً للمتوسّط بوصفه مشروعاً كلياً، والالتفات إلى المستقبل :

«إنّ عادة النظر إلى المتوسّط انطلاقاً من ماضيه فقط، هي عادة ليست في طريقها إلى الزوال في وقتٍ قريب. ذلك أن المفاهيم التاريخية أو السياسية تحلّ محلّ المفاهيم الاجتماعية والثقافية من دون العثور على أرضية انسجامٍ أو تلاقي. لقد كان هذا المجال

الغني بتاريخه ضحيةً لكلّ أشكال التاريخانية الصادرة عن الشمال أو الجنوب. كما لم تنقضِ نزعة الخلط بين تصوّر واقع المتوسّط وبين الواقع ذاته، بل لعلّها تتفاقم. إنّ «هوية الكينونة» إذا تضخّمت حجبت أو استبعدت بسهولة «هوية الفعل»، التي يصعب تحديدها. ففي أكثر من موضعٍ ما زال الميل الاستعادي غالباً على ميل الاستشراف.» [١٥١]

خلاصة : نحو صورة مركّبة وإجمالية للمتوسّط

لقد مرّ المتوسّط، عبر تاريخه الطويل، بفتراتٍ من التوتّر والأزمة حدّدت صياغة متخيّل مترجّحٍ بين النزعة المثالية الجامعة (وخاصّة في الحقبِ التي غلب عليها عاملٌ إمبريالي أو ثقافة هيمنية) وبين نزعةٍ واقعية حصرية مرتبطة بوعي المخاطر أو الأطماع التوسّعية للقوى. فيجدر بنا السؤال عمّا إذا كان المتوسّط قد مارس وظائفَ بوصفه كلاً، أو الأحرى، إذا لم تكن النزعة الغالبة هي استخدام تسمية «متوسطي» للتدليل على أوجه جزئية من هذا الأخير. إنّ الحنين إلى «عصر ذهبي» يوناني روماني كلاسيكيّ مزعوم، شكّل مصدراً لأسطورة وحدة المتوسّط بأكملها، وهي أسطورة عزيزة على قلوب الكلاسيكيين الجدد والمعادين للحداثة في مطلع القرن العشرين. والواقع أننا ما زلنا، إلى اليوم،

> «عندما نفكّر في المتوسّط، في معرضِ اتخاذنا العصور القديمة مرجعاً، فإنّما نفكّر في اليونان وروما.» [١٥٢]

بالمقابل، فإنّ ما راجَ في العصر الوسيط، ومن ثمّ الأزمنة المعاصرة، من صورة البربري والغريب، مدمّر العلاقات الإنسانية أو الثقافية المثالية، قد صاغ مفهومنا لمجال متوسطي هشّ ومهدّد من قبل قوى خارجية، هو ثمرة رؤية ذهانية استمرّت حتّى أيامنا هذه.

لقد أنتج عصر النهضة المرحلة الأولى من الأمثلة : فقد حاولت الدول الأمم الأوروبية الجديدة، سواء كانت متوسطية أم لا، أن

تسبغ شيئاً من الوقار على سوابقها التاريخية والثقافية عبر استردادها ميراثاً يونانياً لاتينياً زعمت أنها وريثته الشرعية. وإثر حقبةٍ من التردّد والتهديد، تزامنت في خطوطها العريضة مع صعود وأفول الإمبراطوريتين العثمانية والأسبانية، صاغ عصر الأنوار صورة «عالم متوسطي» متمتّع بثقافة متسقة وموحّدة تجسّدت مظاهرها الأكثر كمالاً في التشكيل النيوكلاسيكي. بعد ذلك تبنّت الرومنطيقية صورةً مؤمثلة أخرى للمتوسّط، قوامها، هذه المرّة، جذوره الشرقية التي رمزت إليها النزعة الإكزوتيكية اليونانية التركية. وبناءً عليه لم تعد المنطقة متصوَّرةً بمنحى الكلاسيكية اليونانية اللاتينية، بل بوصفها جزءاً لا يتجزّأ من«المشرق» أو من «الشرق»، تلك المنطقة البائسة، المتخلّفة والمنحطّة، ولكن الفاتنة في نظر الشمالي نظراً لضراوتها الشهوانية، والتي تشمل جنوب أوروبا وبلاد المسلمين (١٥٣).

لقد كرّست الصورة الثقافية النمطية للمتوسّط بفضل الرومنطيقية التي امتدحت سماتٍ متناقضة كالفتنة والعنف والطابع البدائي أو الطباع الخاصّة بهذه المنطقة من العالم (١٥٤). ولكن بعد فترة «الهروب» هذه، أظهرت الاكتشافات الكبرى العلمية والتقنية والجغرافية التي مهّدت الطريق أمام التنافس الإمبريالي، سبيلاً رمزياً جديداً للمتوسّط بوصفه أرضاً للغزو والاستغلال (١٥٥)، حيث تتضافر صورة التفوّق وازدراء الآخر مع اعتبارات عملية ذات طابع اقتصادي وسياسي أو جيوستراتيجي، مع صياغاتٍ شاملةٍ ومثالية مزعومة من قبيل «الانتماء المتوسطي» أو «الانتماء اللاتيني» الفرنسي، أو النزعة الأسبانية والنزعة الاستفراقية الأسبانية. فقط عند بروز أزمة النزعة العقلانية الوضعية في نهاية القرن التاسع عشر (المتزامنة مع الحقبة الأشدّ ضراوة للتنافس الاستعماري الأوروبي)، سوف يُسعى، ومن دون التخلّي عن تصوّر المتوسّط بوصفه مجالاً للتوسّع الاستعماري، إلى استعادة صورته المؤمثلة، أولاً عبر تبني النزعة الإكزوتيكية الحداثية، ومن ثمّ عبر الرجوع إلى الصرامة الكلاسيكية الذي تمثّل في أسبانيا بالنزعة

النوسنتية. والواقع أنّ المتوسّط كان يقتصر، في نظر «النزعات المتوسطية» الثقافية المبنية على مقدمات تاريخانية وجودية (الكلاسيكية الجديدة والنوسنتية)، على الحضارة اليونانية الرومانية وعلى مشهدٍ طبيعيّ وحيد : هو المشهد الممتدّ من أليكانتا إلى اليونان. أمّا البقية المتبقية من الحوض فلا صلة لها بالنزعة المتوسطية بل هي، ببساطة، موضوع لإكزوتيكية بحتة. لا بل أكثر من ذلك، إنّ الأسطورة المتوسطية في المطلق لم تكن لا النزعة اللاتينية ولا الإسلام، بل الكلاسيكية اليونانية. الأمر الذي لم يحل دون استغلال هذه الصورة من قبل مذاهب إمبريالية كانت مشاريعها التوسعية تشمل الحوض المتوسطي بأكمله، كالنزعة اللاتينية الفاشستية.

فكما يلاحظ بن عامي، لم يكن المتوسّط يوماً، وبالمعنى التاريخي، مجالاً ثقافياً واحداً ومعلناً نظراً لكون المواريث المختلفة، الميراث الإسلامي في الجنوب، واللاتيني في الشمال، واليوناني في الشرق، بقيت، على الدوام، في حالٍ من التنافس :

«لطالما جرى تعريف الدلالة الثقافية للمتوسّط بمصطلحات المواجهة مع عالمٍ مختلف. فالعالم المتوسطي لم يظهر بوصفه متعارضاً مع الشرق، بل بوصفه متعارضاً مع أوروبا. وجاء مصطلح «العالم المتوسطي» لوضعِ حدّ نهائي للفصل التقليدي بين الشرق والغرب محدثاً بذلك فصلاً من نوعٍ جديد يتشكّل بموجبه جزء من الغرب وجزء آخر من الشرق في وحدة جديدة يكون نموذجها المثالي هو العالم المتوسطي. لقد حُدّدت السمات المتوسطية كانعكاسٍ للطابع الغالب على شعوب المنطقة : الإيطالي واليوناني والعربي واليهودي. وجعلت لهذا الانسان المتوسطي تعريفات متنوّعة. البعض يعرّفه بأنه إنسان ذو طباعٍ هادئة، وبأنه حلو المعشر، بأنه شخص عالمه «هو الشارع والساحة العامة والريف». وثقافته مستلهمة من زرقة البحر، ومن شفافيته ومن ضيائه، كما هي مستلهمة من الظروف المناخية التي تتيح تنوعاً في المزروعات.» [١٥٦]

برغم هذا الجهد المبذول لخلق صورة تلفيقية للمتوسّط (وهي التي نجدها، على قدرٍ أقلّ، في المفهوم المتوسطي الغربي كمجالٍ تاريخي ونطاق تلاقي بلدان الساحل الأوروبي من المغرب)، يحتفظ النطاق بطابعه المجزّأ والمتناقض. وما زالت قائمةً إلى اليوم الصورة النمطية لشرقٍ حالم، صوفي، قديمٍ وخرافي، مرتبطٍ بالإسلام، ولغربٍ واقعي، عقلاني ومتحرّر ذي جذورٍ يونانية لاتينية ومرتبطٍ بالمسيحية واليهودية [١٥٧].

لطالما كانت رؤية المتوسّط في أسبانيا هي رؤية أمة تقع على أطراف أوروبا، بكلّ الأفكار الشائعة التي يولّدها التخلّف الاقتصادي، من قبيل غلبة الطابع السياحي، والمناخ المشمس، بالإضافة إلى القيم المرتبطة بالبطالة والمتعارضة مع قيم العمل والتقدّم. ولكن صفة «متوسطي» اكتسبت معنىً مختلفاً مع بروز الديناميكيات الاقتصادية والاجتماعية الثقافية الجديدة التي ولّدتها عودة الديمقراطية، وبات اليوم يمثّل الابداع والميراث الفني، والمناخ المشجّع، والاستخدام الكثيف للنطاقات العمومية بما يشجّع الاختلاط الاجتماعي المرتبط بالتسلية والانفتاح والنوعية الراقية من العيش أو من المشهد الانساني. ذلك أن الرجوع إلى المتوسّط يمثّل لدى الأسبان، ولدى الأوروبيين بصفة عامّة، الجرعة اللازمة من المثالية، ومن الشغف، ومن المشاعر في مواجهة الواقعية التكنوقراطية والمادية المستفحلة اللتين تسودان حياتهم [١٥٨]. لا ريبَ في أن الرؤى السلبية والابتدائية المرتبطة بالعرق وبالدين وبالثقافة، قد تحوّلت إلى مفاهيم متعدّدة الأشكال. غير أن المتوسط ما زال يبدو، في التصوّر الجمعي لأهل القارة القديمة، خاضعاً لصورتين متعارضتين. الأولى هي صورته كمجالٍ سياحيّ مفضّل بسبب تضافر العوامل كالظروف المناخية المواتية (الشمس بصورة خاصّة)، وجمال المنظر الطبيعي والتنوع الثقافي الناجم عن تلاقي ثلاثة أديان، ما يجعله مكاناً لأكبر تركّز فنيّ في العالم [١٥٩]. وإلى هذا ينبغي أن نضيف أفكاراً شائعةً أخرى كتلك التي تزعم وجود تغذية مستقلّة مبنية على

استهلاك المنتجات الصحية والطبيعية، ثمار مناخٍ ملائم [١٦٠]؛ معمار بسيط وتقليدي [١٦١]، وتنظيم مدني إنساني مبنيّ على المدينة المصمّمة وفق نظامِ الضيافة، ومؤلّفة من مجموعةٍ متصلة من الشوارع والساحات الملائمة للاتصال وللصلات بين الأفراد؛ حياة متمدّنةٍ بشدّة حيث تعطى الأهمية للعلاقات الإنسانية وواقع أن النشاط الاقتصادي يجري جنباً إلى جنب مع الحياة الاجتماعية، ومع المتاجرة ومع الساحة العامّة ومع النزهة... أي أنها، بكلمة واحدة، ثقافة بطالة تجلب للمجتمع رخاءً ذا طابعٍ شمالي مخصوص، عنصراً لا غنى عنه للإبداع الفني والعمل ولإعمالِ المخيّلة [١٦٢]. كلّ هذا يدعونا إلى افتراض «حياة متوسطية» تتميّز بأنها «فنّ عيش» يتنامى في أماكن اجتماعٍ محدّدة: ساحات عامّة، منتديات، مصاطب، شرفات، جوامع، أسواق... كما يمكننا أيضاً افتراض وجود طبْعٍ متوسطي، فردي وجمعيّ، يتميّز بالانفتاح على الآخر، والمزاجية، والحيوية والسخرية والميل إلى اللعب... كما أنّ العائلة ما زالت أساسية في سلّم القيم لدى الشعوب المتوسطية إلى جانب امتداح العمل كوسيلةٍ لتوفير الشروط المرجوة لمستوى العيش الكريم، أو الخلق وصون بعض التقاليد في مواجهة مخاطر الهيمنة المترتبة على سياق العولمة الاقتصادية والثقافية.

ولكن إلى جانب الرؤية المثالية للمتوسط كجوهرٍ لفنّ العيش، يبدو النطاق أيضاً، في عالم الإعلام الحالي، كرمزٍ للنزاع. إذ يجب ألاّ ننسى أن المتوسّط، مهد الدولة كشكلٍ مركّب للتنظيم الاجتماعي، كان ولا يزال إحدى المناطق الأكثر اضطراباً على وجه الكرة، ليس فقط لأنه كان ساحة المواجهة بين الأديان التوحيدية الكبرى الثلاثة، بل أيضاً لأنّ طرق الاتصال العديدة قد أفضت إلى صراعات عرقية وتجارية وإمبريالية واستعمارية وما بعد استعمارية، إلخ... والواقع أن المنطقة كانت بين عامي ١٩٤٥ و١٩٨٠، مسرحاً لمئةٍ ونزاعين، من بينها ٦٤ كانت مواجهات بين أمم، و٣٤ انقلاباً عسكرياً. وبين ١٩٧٧ و١٩٩٦، هناك ١٦ حرباً وثورة أو نزاعاً

مسلّحاً طاولت بلداً أو عدة بلدان متوسطية، ما يفسّر، جزئياً، كون الأمن في المنطقة ما زال يُنظَر إليه حالياً من حيث طابعه العسكري البحت [١٦٣].

يعود الوضع النزاعي أولاً إلى وجود تحديات كبرى لم تجد حلولاً إلى يومنا هذا، والتي سمّاها الأدب ذو النزعة المتوسطية «الدالات الثلاثة» : الديموقراطية، الديموغرافيا، والتنمية (ولا يخفى على القارىء أن هذه العبارات تبدأ، جميعها، باللغات الأجنبية، بحرف D - démocratie, démographie, développement - المترجم). تتميّز دول الحوض المتوسّطي بأنظمة حكم متنوّعة (شخصانية أو برلمانية، مع درجات متفاوتة – حسّاسة – من المشاركة المدنية ومن العلمانية، إلخ..) كما أنها تنتمي إلى مستويات متفاوتة جداً من التطوّر الديموقراطي. وإنّ عدم الفهم الأوروبي لتعدّد البعد السياسي للإسلام، والذي يختزل، على نحوٍ تبسيطي غالب، بأنّه أصولية وتعصّب [١٦٤]، يقابل برفض الأفارقة والعرب أن يتوقّعوا من الغربيين سوى العلاقات الامبريالية الجديدة والاستعمارية الجديدة. كلّ هذا يجعل من البلاغة ذات النزعة المتوسطية قابلةً لأكثر من تأويل من قبل كلّ أمةٍ من هذه الأمم : كوسيلةٍ جديدة لتمويه التبعية أو كنطاقٍ للحوار والمصالحة بين الإيديولوجيات التوحيدية الأوروبية والعربية.

على الصعيد الديموغرافي، تبدي المجتمعات الأوروبية، وبدرجاتٍ متفاوتة، شعوراً متناقضاً هو مزيجٌ من الشعور بالذنب حيال مشهد المجاعات الكبرى في إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، ولكن أيضاً مما يشبه الذهان المعلَن من الغزو الذي يصاحب كلّ عنوانٍ في صحيفةٍ أو في نشرات الأخبار المتلفزة حول المهاجرين غير الشرعيين. ففي إغفالها المتعمّد للمشكلات الناجمة عن النمو الديموغرافي بوتائر متسارعة (باعتبار أن المهمّ هو، بالتأكيد، مشكلة الحفاظ على مستوىً مرموق من الانتاجية)، تفبرك نزعة الانغلاق الأوروبي على الذات، الاستبعادية، أشباحاً

خطيرة، يبرز من بينها على نحوٍ خاص، استغلال قضايا الهجرة والمهاجرين في أبعادها الإحصائية الوضيعة (إذا كانت أوروبا تستوعب ٥١ في المئة من سكان المنطقة، مقابل ٣٤ في المئة في الدول العربية، و١٥ في المئة في تركيا، فإنّ هذه النسب سوف تنقلب على نحوٍ ملموسٍ في غضون ثلاثة عقود : ٦٨ في المئة للبلدان العربية، و٢٢ في المئة لتركيا، و١٠ في المئة لأوروبا)، وفي بعدها السياسي (ظهور «الطابور الخامس»، والحركات الأصولية والمتشددة والمعادية للديموقراطية أو الإرهابية) وفي بعدها الثقافي (عدم تمثّل العادات والتقاليد الإفريقية لسياقات الأوربية : أمية، تعصّب، نقص في العناية الصحية، اكتظاظ، إلخ...). إذ يستخدم الخوف من غزو إفريقيا غير المستقرّة والأصولية كذريعةٍ مطمئنة إلى شرعية السياسات المتشدّدة إزاء الهجرة والمهاجرين [١٦٦].

إنّ المشكلة الاقتصادية هي أساس الصعوبات السياسية (هشاشة الديموقراطية)، والاجتماعية (موجات الهجرة، والمشكلات العرقية)، والثقافية (الاختلافات الدينية والتباينات في القيم)، والبيئية. في عام ١٩٩١، كانت بلدان السوق الأوروبية المشتركة تحقّق ما مجموع نسبته ٨١ في المئة من الناتج الداخلي الخام للحوض المتوسطي، مقابل فقط ٣،١٠ في المئة لبلدان الجنوب المتوسطي. وإلى ذلك ينبغي أن يضاف الدين الخارجي المتعاظم إلى جانب الأعطال الخطيرة في الإنتاج الزراعي والصناعي، وقطاع الخدمات والتكنولوجيا والقطاع المالي، ما يعرقل النموّ ويحدّ من مسار التكامل الإقليمي.

بعد أن عُرف بأنه «بحيرة السلام الكبرى»، و «بحيرة العالم»، يشهد المتوسّط اليوم انبعاثاً لأقلّ صوره جاذبية : وهي صورته كمجالٍ ثانويٍ من الناحية السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والبيئية [١٦٧]. إذ تبدو المنطقة كخطّ صدعٍ بين الشمال والجنوب، ليس بين المسيحية والإسلام بل بين النموّ والتخلّف، بين الفقر

والثروة، بين الحداثة والتأخّر، بين مجتمعاتٍ ديموقراطية ومجتمعات محكومة على نحوٍ استبدادي، بين العلمانية وصعود الأصولية الدينية [١٦٨]. ولقد وصف مؤرّخ معروف للعصور القديمة هذا التباعد الرمزي بين الضفتين، على نحوٍ معبّر، حين قال :

«إنّ اوروبا المتوسطية هي، في أذهاننا، بالتأكيد، جنوب الشمال ؛ ولكن في المحصلة، هي الشمال. وإفريقيا المتوسطية ربّما كانت شمال الجنوب، لكنّها، بالتأكيد، الجنوب.» [١٦٩]

مع اتساع الهوّة على نحوٍ متزايد، يكتسي اهتمام أوروبا بالمتوسّط الجنوبي طابعاً سلبياً ملحوظاً. فعلى غرار ما كان سائداً في العصر الوسيط، يُنظر إلى الإسلام بوصفه تجسيداً للغيرية الجذرية، والفوضى، والخطر، وعدم المساواة، الأمر الذي يفاقم التناقضات الاقتصادية ويبرّر إجراءات الوقاية السياسية. ذلك أنّ التعارض بين المتوسّط اللازمني والفردوسي الذي هو اختراع أوروبا المكتفية والمعزولة، وبين المتوسّط اليومي للتباينات السحيقة، هو أكثر وضوحاً مما نحسب. فكما يلاحظ الكاتب مانويل فاثكيث مونتالبان، بنبرة ساخرة :

«بديهي، في هذا السياق، أنّ المتوسّط المنظور إليه من «مركب مخلَعٍ» يحاول أن يعبر مضيق جبل طارق، لا يشبه الرؤية التي يصوغها له أوجينيو دورس، عندما كان يحلم في «La ben plantada» سابحاً في مياه متوسّط حوّلته أيادي الغرب إلى وطن مثالي لشرعةٍ جديدة تتيح تجاوز ثورة الجماهير.» [١٧٠]

غالباً ما يجري تقديم ما يلي بوصفه بديلاً ممكناً لمستقبل المتوسط : السير به باتجاه التهجين، أو تعميق الهوة بتحويله إلى «قلعةٍ أوروبية» مبنية من أجل الدفاع عن النفس ضدّ تهديد «برابرة الجنوب». مع أنّ فكرة «أوروبا البيضاء»، النقية وغير الملوّثة، تبدو، على الأصعدة كلّها، غير قابلة للتحقّق في عصرٍ يتضح فيه أن كل شعوب القارة هي نتاج عملية تهجين مركّب، عرقيّ وثقافي. كما في الماضي، وبرغم كلّ العقبات، يبقى المتوسّط

شرياناً يضمن حركة تداول البشر والأفكار، ما يفضي إلى تعدّد الصلات الثقافية والإتنية، وحركة التحويل التكنولوجي، وبروز ذهنياتٍ وقيم جديدة، إلخ... متسبباً في تغيّر ملموس للمشهد البشري المحيط. أمام هذه البديهة، لا يسعنا إلاّ الإقرار بأن المتوسطيين الجنوبيين، كما الشماليين، يشتركون في روابط ثقافية بديهية، غير أنّ التصورات، مهما كانت سطحية ودوغمائية، قد أخفت، إلى الآن، وشوّهت أو، في الأقلّ، حجبت هذه الروابط.

مجال ناشىء بوصفه عالماً مصغّراً لثقافاتٍ وأديانٍ وأنظمة حكم سياسية واقتصادات وأتنيات... المتوسّط هو مختبر نموذجي لتحليل النزاعات الدولية ذات الطابع الاستراتيجي، الديني، الإتني الاقتصادي والهجراتي والبيئي، إلخ... [١٧١]. إنّ مفتاح المشكلة سوف يكمن في إعادة التوازن إلى المتوسّط كمجتمعٍ متعدّد ثقافياً، ومتضامن [١٧٢]، حيث تكون وظيفة الإيديولوجية «المتوسطية الهوى»– وهي للمناسبة مفهوم غامض، لكنّها راسخة حالياً – أن تعيد اختراع أو أن «تجدّد شباب» هذا المجال في بعده المتجاوز للقوميات [١٧٣]، لكي يتاح لأوروبا تجسيد تطلعها القديم إلى الوحدة الفعلية مع الجنوب، تماماً كما تزعم الآن أنها فاعلة مع بلدان شرق أوروبا، لمنافسة الكتلة الأميركية والآسيوية في عالم التبادل المعمّم، الجديد هذا.

الحواشي

(١) Manuel Vincent , Del Café Gijón à Ítaca. Descubrimiento del Mediterráneo como mar interior, El País/Aguilar, ١٩٩٤ , مدريد ;

(٢) Miguel Ángel de Bunes Ibarra, "La percepción del Magreb en España : siglos XV-XVII", in Victor Morales Lezcano (coord.), Presencia cultural de España en el Magreb , MAPFRE, ٢٦ ص , ١٩٩٣ , مدريد ;

(٣) Georges Duby, "La Mediterrània dins la història de la cultura europea" in G. Duby, Els ideals de la Mediterrània dins la cultura europea, Enciclopèdia Catalana, 1995 , برشلونة
جورج دوبي : «المتوسّط في تاريخ الثقافة الأوروبية»، في جورج دوبي (إشراف) : «مُثُل المتوسّط في الثقافة الأوروبية»، ص٢٦ :

(٤) Shlomo Ben-Ami, "El Mediterráneo Oriental caminos y agitaciones", in Àngels Roque, Identidades y conflicto de valores. Diversidad y mutación social en el Mediterráneo, Institut Català de la Mediterrània d'Estudis I Cooperació, 1997
شلومو بن عامي: «المتوسّط الشرقي : دروب واضطرابات» في آنخيل روكوي (محرّر) : «هوياتٌ وصراع قيم. التعدّد والتحوّل الاجتماعي في المتوسّط»، ص٣٠٢ :

(٥) Diccionario de Autoridades (١٧٣٢)، طبعة مصوّرة، مدريد، غريدوس، ١٩٧٥ ، ص٥٣٠ :

(٦) Timoteo O'Scanlan, Diccionario marítimo español, Imprenta Real, مدريد، ١٨٨١، ص ٣٦٦ :

(٧) Real Academia Española, Diccionario de la Lengua Española, Espasa Calpe, الطبعة الحادية والعشرون، مدريد، ١٩٩٢، ج ١١، ص ١٣٤٧ :

(٨) Mahdi Elmandjra, "La investigación científica como creación. El caso del Mediterráneo : Antecedentes y prospectiva" in Instituto de Ciencias del Hombre, Creatividad mediterránea, Fundación Instituto de Ciencias del Hombre, ١١٤ ص ،١٩٨٣ ، مدريد ;

(٩) Baltasar Porcel, "El gran espai creador mediterrani", in Simposio Internacional La vertebració de l'Espanya mediterrània : paitsage, empresa I imaginari, institut Català de la Mediterrània, برشلونة ، ١٩٩٥، ص ٢٤ -3-5-IV ;

(١٠) Josep Maria Salrach, "Creixement feudal I expansió mediterrània : una reflexió crítica" in L'expansió de Catalunya en la Mediterrània, Fundació Jaume 1, برشلونة، السنة السابعة عشرة، ١٩٨٣، ص ٥٨–٧٠ ;

(١١) أنظر شهادة Francisco de Moncada, Expedición de catalanes y aragoneses contra turcos y griegos, Lorenzo Deu, برشلونة، ١٦٢٣ (الطبعة الثانية، مدريد، اسباسا كالبي، ١٩٧٣). ومن هذه المغامرة نشأت العبارة التي يطلقها اليونانيون كلعنة والقائلة : «فلتكن بلواكَ ثأر الكتلانيين !».

(١٢) Victor Morales Lezcano, "Especificidad africanista del orientalismo español (١٨٥٠–١٩٣٠) in Victor Morales Lezcano, España y mundo árabe : imágenes cruzadas, Ministerio de Asuntos Exteriores/ AECI/ Instituto de Cooperación con el Mundo Árabe, مدريد، ١٩٩٣، ص ٥٨ ;

(١٣) Juan Zozaya Stabel-Hansen, "Al-Andalus y el Mediterráneo", in Andalucía y el Mediterráneo, Junta de Andalucía إشبيلية، ١٩٩١، ص١٦٥ ;

(١٤) Miguel Ángel de Bunes Ibarra, "Causas del distanciamiento cultural en la edad moderna", in Enrique Viaña Remis y Miguel Hernando de Larramendi, Cooperación cultural en el Occidente Mediterraneo, Bilbao, Fundación BBV, ١٩٩٥، ص ١٩٣–٢٠٨ ; La percepción del Magreb en España : siglos XV-XVII ص ٢١–٢٦ و٤٦ ;

(١٥) Juan Goytisolo, "Cara y cruz del moro en nuestra literatura", in Crónicas Sarracinas, Ibérica de Ediciones y Publicaciones برشلونة، ١٩٨٢، ص ١١–١٢ ;

(١٦) Juan Goytisolo, De Don Julián a Makbara : una posible lectura orientalista", in Crónicas Sarracinas, ص٢٩ ;

(١٧) Miguel Ángel de Bunes Ibarra , La imagen de los musulmanes y del Norte de África en la España de los siglos XVI y XVII. Los caracteres de una hostilidad, Instituto de Filología del CSIC, مدريد، ١٩٨٩، ص ٣ ;

(١٨) المرجع المذكور، ص ٩ ؛

(١٩) Mercedes Garcia Arenal, Miguel Ángel de Bunes Ibarra, Los españoles en el Norte de África. Siglos XVI-XVIII, Ed. MAPFRE, مدريد، ١٩٩٢، ص ١٢-١٣ ؛

(٢٠) أنظر مثلاً Baltasar Porcel, "Els pirates" y "Moros Venen", in Les illes encantades , Edicios 62, برشلونة، ١٩٨٤ ، ص١٧١-١٧٢ وص٢٢٧-٢٣٢ ؛ أنظر أيضاً Crònica d'atabalades navegacions, Edicions 62, ، برشلونة، ١٩٩٤، ص٣٥-٣٩ ؛

(٢١) Víctor Morales Lezcano, España y la cuestión de Oriente, Madrid Ministero de Asuntos Exteriores, ١٩٩٢، ص١١٣ ؛

(٢٢) Fernand Braudel, Civilisación material, economía y capitalismo, Alianza, مدريد، ١٩٨٤، الجزء الثالث، ص٣٩١ ؛

(٢٣) Samir Amin, Faiçal Yachir, El Mediterráneo y el mundo. La aventura de la transnacionalización, IEPALA, مدريد، ١٩٨٨، ص١٣ ؛

(٢٤) Sabatino Moscati, "El Mediterráneo en la historia, in S. Moscati y al., El Mediterráneo otra vez. Por una cultura del Encuentro, مدريد، ١٩٨٧، ص٢٥ ؛

(٢٥) Victor Morales Lezcano , Africanismo y orientalismo español en el siglo XIX, UNED, مدريد، ١٩٨٨، ص ٦١ ؛

(٢٦) Bernard Lewis, "El Esado del Islam", Al Andalus. Revista de estudos Árabes de Madrid y Granada, Vol xxxvi, الكراسة الأولى، ص١-٢٨ ؛

(٢٧) Edward W. Said, Orientalismo, Libertarias, مدريد، ١٩٩٠، ص٢٥ ؛ أنظر الترجمة العربية: «إدوارد سعيد : «الإستشراق - المعرفة ، السلطة ، الإنشاء»» ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ٤٢ ؛

(٢٨) Bernabé López García, "Arabismo y orientalismo en España : radiografía y diagnóstico de un gremio ascaso y apartadizio", Awraq. Estudios sobre el mundo árabe e islámico ملحق بالجزء الحادي عشر لـ مدريد، ١٩٩٠، ص٤٠ ؛ ونشير، بصورة خاصة، إلى وجود دراسات استعرابية، تاريخية أو حقوقية، في عهد فرناندو السادس وكارلوس الثالث، وهذا برغم أن الاستعراب لم تعترف به الجامعة رسمياً إلاّ منذ

العام ١٨٤٠، وذلك بفضل باسكوال غايانغوس.

(٢٩) Victor Morales Lezcano, "Especificidad africanista del orientalismo español (١٩٣٠–١٨٥٠)" in España y el mundo árabe. Imágenes cruzadas, ص٦٣ ;

(٣٠) Gabriel Maura Gamazo, La cuestión de Marruecos desde el punto de vista español, M. Romero, مدريد، ١٩٠٥، ص ١٦ ;

(٣١) Serafín Estébanez Calderón, Manual del oficial en Marruecos, o cuadro geografico , estadístico , histórico , politico y militar de aquel imperio, Imprenta de D. Ricardo Boix, مدريد، ١٩٤٤ ;

(٣٢) مداخلة خوان دونوسو كورتيس (Juan Donoso Cortés) في النقاش حول السياسة الخارجية، في ١٨٤٧/٣/٤ ، في 4-III-1847 Diaro de Sesiones en Cortés، ص٧٢٦–٧٣٣ و٧٣٨–٧٣٩ : ذكره Manuel Fraga Iribarne, "Donoso Cortés ante la crisis de España. Su visión del problema africano", in Africa en el pensamiento de Donoso Cortes, CSIC, مدريد، ١٩٥٥، ص٦٠–٦١ و Diego Sevilla Andrés, África en la política española del siglo XIX، CSIC، مدريد، ١٩٦٠، ص ٦٧ ;

(٣٣) مداخلة خابيير مارتينيث دي لا روسا في النقاش حول السياسة الخارجية في ١٨٤٧/٣/٤ :
في 4/III/1847 Diario de sesiones en Cortes، ص ٧٣٦–٧٣٧ : ذكره Sevilla Andres, África en la política española del siglo XIX, ص ٦٨ ;

(٣٤) Morales Lezcano, España y mundo Árabe: imágenes cruzadas، ص ٢١ :

(٣٥) Antonio Canovas del Castillo, Capítula final de los Apuntes para la Historia de Marruecos (١٨٦٠) , Librería General de Victoriano Suárez, (١٩١٣), مدريد، ص٢٧٦ ;
نشر للمرّة الأولى عام ١٨٥٢ في الصيغة النهائية لهذا الفصل الأخير، أعيد صياغته ونشر في La América في ١٨٦٠/٦/٨، بعيد حملة المغرب. وكان كانوفاس أكثر تشكيكاً بشأن الهيمنة على إفريقيا.

(٣٦) Carlos Serrano y L.C. Lecuyer, La Guerre d'Afrique et ses répercussions en Espagne, 1859-1904, PUF, باريس، ١٩٧٦،

ص٩٣ : (حرب إفريقيا وانعكاساتها في أسبانيا، ١٨٥٩-١٩٠٤) : أمّا بشأن أثر الحرب على الرأي العام الأسباني، أنظر ص٣٥-٩٢ :

(٣٧) Morales Lezcano, "Especificidad africanista del orientalismo español (١٨٥٠-١٩٣٠)", in España y el mundo árabe. Imágenes cruzadas, ص ٦١ ;

(٣٨) R. Gil Benumaya, "Diez años de relaciones culturales hispano-árabes" Arbor (Madrid), العدد ١٩٧، أيار/مايو ١٩٦٢، ص٦٤-٦٥ ;

(٣٩) Bernabé López García, "Contribución a la historia del Orientalismo español (١٨٤٠-١٩١٧) Facultad de Filosofía y Letras, غرناطة، ١٩٧٤، ص٩ ;

(٤٠) Ángel Ganivet, Idearium Español y El porvenir de España, Espasa-Calpe الطبعة السادسة، مدريد، ١٩٦٢، ص٨٧-٩١ ;

(٤١) المرجع المذكور، ص١٠٩ :

(٤٢) المرجع المذكور، ص١٢٣ :

(٤٣) المرجع المذكور، ص١٦٥ :

(٤٤) المرجع المذكور، ص٨٧-٩١ :

(٤٥) Joaquin Costa, "Intereses de España en Marruecos", مدريد، ١٨٤٤، ص ٤٣-٤٥ ، مذكور في Eloy Fernandez Clemente, Joaquín Costa y africanismo español Saragosse, Publicacions Porvivir Independiente, ١٩٧٧، ص٥١-٥٢ ;

(٤٦) Gonzalo de Reparaz, Política de España en África, Lib. de Victoriano Suarez, ١٩٠٧، ص٢٧١ ;

(٤٧) Joaquin Costa , "La política y Comercio de España en África", Impta. De la Revista de Legislación, مدريد، ١٩٨٢، ص٨-٩ ;

(٤٨) Gonzalo de Reparaz, "La politica de los africanistas es esencialmente pacifista", in España en África y otros estudios de politica colonial, Imp. Del Ministerio de Justicia, مدريد، ١٨٩١، ص٦ ;

(٤٩) Lily Litvak, "Exotismo del Oriente musulmán fin de siglo", in Victor Morales Lezcano, (coor.), Actas del ciclo de conferencias

وللمؤلف نفسه "Africanismo y orientalismo español", ص ٧٦ ,
El jardín de Alah. Temas del exotismo musulmán en España, 1880-1913, Ed. Don Quijote, ١٩٨٥ ،غرناطة ;
وأيضاً : El sendero del Tigre. Exotismo en la literatura española de finales del siglo XIX, 1880-1913, Taurus, ١٩٨٦ ،مدريد ;

(٥٠) حول العلاقات بين الـ Renaixença والحركة الفيليبرية في القرن التاسع عشر، أنظر : Ramón Aramon I Serra ,"Miréio a Catalunya" في «أعمال ومذكرات المؤتمر الدولي الثاني للغة والأدب في جنوب فرنسا» إيكس أون بروفانس ، مركز الدراسات البروفنسالية في كلية الآداب، ١٩٥٨ ، ص ٢٨١–٣١٠ :
و Frédéric Mistral I la Renaixança catalana, Rafael Dalmau, ١٩٨٥، برشلونة، ;
و Robert Lafont, "Renaixança catalana y Renaixança occitana" Serra d'Or ،١٠٧ ،عدد ١٩٦٨-٨-١٠ ،برشلونة ;

(٥١) Norbert Bilbeny, "Eugenio d'Ors: La Mediterrània com a pensament d'acció",
وثيقة كتبت للـ Simposio Internacional La vertebració de l'Espanya mediterrània (١٩٩٥-٤-٥/٣) ,
المصنّف في : Institut Català d'Estudis Mediterranis , Catdoc 6911 empresa I imaginari , Institut Català de la Mediterrània paisatge (٦), برشلونة، ص١ : وننتهز المناسبة هنا للتعبير عن امتناننا للمعهد الكتالاني للمتوسّط في برشلونه، وخاصة لأمينة مكتبته، أليسندا ماثيا، لما قدّمته لنا من تسهيلات لانجاز أبحاثنا.

(٥٢) Jordi Casassas, "El catalanisme I la Mediterrània", ، وثيقة كتبت للـ Simposio internacional، المرجع المذكور، والمصنّف في المعهد الكتالاني للدراسات المتوسطية Catdoc 6912 (٦) ACCN 6708 ، ص٤ :

(٥٣) أقوالٌ لغاودي وردت في Isidre Puig Boada, El pensament de Gaudí, Publicaciones del Collegi d'Arquitectes de Catalunya-La Gaya Ciencia, برشلونة، ١٩٨١، ص٦٧ :
و "Gaudí ens parla" في Miscellanea Barcinonensia، برشلونة، السنة الخامسة عشرة، ٤٤ ، ١٩٧٦ ، ص٤٧–٤٨ :
وانظر أيضاً Luis Racionero, El Mediterráneo y los bárbaros del Norte, Plaza & Janes ، برشلونة، ١٩٩٦، الفصل السادس.

(٥٤) Jordi Casassas, "Les bases inicials de la democratització de la societat catalana", in père Gabriel (éd.) Historia de la cultura catalana, vol VII, El Noucentisme, 1906-1918, Edicions 62, برشلونة، ١٩٩٧، ص٣٩ ;
وبـــحسب (.dir) "El Noucentisme" in Joaquim Molas Historia de la literatura catalana, vol X, Ariel, 1987, برشلونة، ١٩٨٧، ص٣٦ ;
إنّ النوسنتية على غرار المدرسة الأدبية المنسوبة إلى «العمل الفرنسي»، قد دعت إلى تبني النزعة الكلاسيكية بوصفها الأسطورة التعويضية لبلدان أوروبا الجنوبية في مواجهة واقع تخلّفها الصناعي.

(٥٥) Miguel Delibes, Castilla, lo castellano y los castellanos, Planeta, برشلونة، ١٩٧٩، ص٢٢٥ ;

(٥٦) in Escrits sobre art, Joaquim Torres-Garcia, "Notes Sobre art", (١٩١٣) "L'Esperit clàssic I el retorn a la Mediterrània" ذكره : ١٩٨٠، ص٤٢ ، in Saber ,(١٩٨٥) Antoni Mari ، العهد الثاني، برشلونة، العدد ٢، آذار/مارس – نيسان/أبريل ١٩٨٥، ص٣٧ :

(٥٧) Antoni Marí, "L'esperit clàssic i el retorn a la Mediterrània", ص ٣٦ ;

(٥٨) خواكيم توريس غارثيا، المرجع المذكور، ص٤٢ : مذكور في أنطوني ماري، المرجع المذكور، ص ٣٨ :

(٥٩) Enric Jardí, El Noucentisme, cultura de la Mediterrània, ذكره Proa, برشلونة، ١٩٨٠، ص٢٤–٢٥ ;
و "El Noucentisme, cultura de la Mediterrània", in Catalunya, nació mediterrània, Fundació Jaume I, برشلونة، ١٩٩٣، ص٣٧ ;

(٦٠) Pedro Carlos González Cuevas, "Maurras en Cataluña", in Boletín de la Real Academia de la Historia, مدريد، ١٤٥، الكرّاسة الثانية، ١٩٩٨، ص٣٢٧ : في مطلع السبعينات من القرن التاسع عشر، كان قد ظهر تيار لاتيني مرتبط بالنزعة الوضعية وبالنزعة الإمبريالية. وكان أبرز ممثليه في أسبانيا مارسلينو منديث بيلايو، أنطونيو كانوفاس، أميليو كاستيلار وخوان فاليرا.

(٦١) Eugenio d'Ors, "De l'Unamuno considerat com un home que té raó", in La Veu de Catalunya, برشلونة، ٢٨ – ٨ – ١٩١١
Norbert Bilbeny, Eugenio d'Ors I la ideologia del Noucentisme, ذكره

Ed. de la Magrana, برشلونة، ١٩٨٨، ص١٣٤–١٣٥ ;

(٦٢) Luís Calvo Calvo, "La recerca de la identitat ètnica. Una aproximaciò des de la història de l'antropologia" Catdoc 6913 نصّ مطبوع على الآلة الكاتبة ومصنّف لدى Institut Catala d'Estudis Mediterranis , (٦) ، ص٥ :

(٦٣) رسالة من جوسيب م. باتيستا إلى ت. كاريراس إي آرتاو (برلين، ٢٨–٧–١٩٢٠)، ذكرها Luis Calvo Calvo في المرجع السابق، ص٢١ : وكان باتيستا إي روكا يعتبر أيضاً أنّ «الغرض المثالي قد يكون في الانكباب على تمحيص الثقافة الشعبية للمتوسّط الغربي. لقد فوجئتُ كثيراً لعلمي بأن الدكتور هادون (Haddon) كان موافقاً على هذه الفكرة وكان ينصح بأن يقام في برشلونه متحفٌ كبير للثقافة المتوسّطية. إذ لا يعقل أن تكون هناك نزعة إمبريالية أحسن من ضرورة الذهاب إلى برشلونه لكي ندرس الثقافة الكتالانية، أمّ الثقافات الأخرى كافّة !» (رسالة من ج. م. باتيستا [أكسيتير كولدج، أوكسفورد ، ٨–١–١٩٢٠]، مذكورة في المرجع السابق نفسه، ص٢٣) :

(٦٤) Eugenio d'Ors, "A Ramon Llull", in La Veu de Catalanuya, برشلونة، ٣٠–٦–١٩١٥، مذكور في Edicions 62, Glosari , Barcelone، ١٩٨٦، ص ٢٤٥–٢٤٦ :

(٦٥) Eugenio d'Ors , "Més, sobre el Centenari", in Obra Catalana Completa, Glosari 1906-1910, Selecta, برشلونة، ١٩٥٠، ص٣٦٠ :

(٦٦) التعارض الذي يقيمه دورس بين الإنسان اللاتيني والإنسان الجرماني بشأن عوليس، وسيغفريد وتريستان في تفسيره "Mes sobre l'èxit" Quaderns d'Estudi, (١١–١٩١٦) . السنة الثالثة، الجزء الثاني، آذار/مارس ١٩١٨، برشلونة، ص٣١–٣٢ :

(٦٧) Eugenio d'Ors, La bien Plantada de Xènius, Calpe مدريد، ١٩٢٠، ص ١٣–١٥ : أنظر أيضاً،

Norbert Bilbeny, Eugenio d'Ors I la ideologia del Noucentisme, Ed. de la Magrana, برشلونة، ١٩٨٨، ص ١٣٣–١٤٤ ;

(٦٨) Eugenio d'Ors, "Oceanografia", (V/VI-1910) in Obra Catalana Completa. in Obra Catalana Completa. Glosari, 1906-1910. ، ص ١٣٥٨–١٣٥٩ :

(٦٩) Eugenio d'Ors, "Defensa del Mediterrani en la Gran Guerra", La Revista, no 5, 1915، مــذكــور فــي Norbert Bilbeny, "Eugenio d'Ors : la Mediterrània com a pensament d'acci ?", مذكرة قدمت للـ

Simposio Internacional La vertebració de l'Espanya mediterrània : paisatge, empresa i imaginari, Barcelone, Institut Catala d'Estudis de la Mediterrània, (١٩٩٥-٤-٥/٣)

المصنّف لدى المعهد الكتالاني للدراسات المتوسطية، Catdoc 6911 (٦)؛

(٧٠) إنّ أسطورة أمبورياس بوصفها جوهر النزعة الكلاسيكية ونزعة إضفاء الطابع المتوسطي، تظهر في مؤلَّف

Manuel Brunet i Sola, El meravellós desambarcament dels grecs a Emprics, Diana, برشلونة، ١٩٢٥,

نشر بالكاستيانية في برشلونه، منشورات ديستينو، ١٩٤٢ ؛

(٧١) بشأن الأسطورة النوسنتية للمدينة أنظر :

Joan Lluis Marfany, "El naixement del mite noucentiste de ciutat" in Noucentisme I ciutat". Centre de Cultura Contemporania de Barcelone/Electa, برشلونة، ١٩٩٤، ص ٣٣-٤٤ ;

(٧٢) بشأن هذه الحركة الأدبية وشخصيّاتها الأبرز أنظر:

Carlos Antonio Arean , Rámon de Basterra , مدريد , Cultura Hispánica, ١٩٥٣; Guillermo Diaz-Plaja , La poesía y el pensiamiento de Ramón de Basterra, برشلونة , Ed. Juventud, ١٩٤١; Antonio Elorza, Ideologías del nacionalismo vasco, 1876-1937 (De los "éuskaros" a Jagi-Jagi), San Sebastián, L. Haramburu Editor ١٩٧٨، ص٢٤٣-٢٥٤ و: Juan Pablo Fusi , El País Vasco. Pluralismo y nacionalidad, Madrid, Alianza, ١٩٨٤، ص١٢٧-١٤٦. Gabriel Plata Parga , La derecha vasca y la crisis de la democracia española (1931-1936), Bilbao, Diputacion foral de Vizcaya , ١٩٩١، ص٤٠-٥٠ . Begona Rodríguez Urriz, "Hermes, revista del Pais Vasco", Una empresa cultural bilbaína, Bilbao, Diputación Foral de Vizcaya , ١٩٩٣;

(٧٣ Narcís Comadira, "Sobre el mediterranisme: unes notes", Quaderns d'Arquitectura i Urbanisme، بــرشــلــونــة، العدد ١٥٣، أيلول/سبتمبر ١٩٨٢، ص ٤٦-٥١ ؛

(٧٤) برشلونة، El Poble Català , " Mitologia " , Eugenio d'Ors , ٢٦-٨-١٩٠٥ ، مــــذكـــــور في Jaume Vallcorba, Noucentisme, mediterraneisme I classicisme. Apunts per a la historia d'una estètica, Quaderns Crema, برشلونة، ١٩٩٤، ص٥٢، الهامش ٥١ ;

(٧٥) Eugenio d'Ors, "Emporium", La Veu de Catalunya، برشلونة، ١٩-١-١٩٠٦، مذكور في Glosari ، ص١٨-١٩ ، وفي 1906-1910, Glosari, Obra Catalana Completa، ص٥٣-٥٤ : بشأن التبعات المتوسطية لفكرة الإمبراطورية بحسب كسينيوس، أنظر : Joan Tusquets L'imperialisme cultural de Eugeni d'Ors, Barcelone, Ed. Columna, ١٩٨٩، ص١١٠ :

(٧٦) Glosari, 1906-1910, Eugenio d'Ors, "Aquí, a casa", (١٩٠٩) in Obra Catala Completa, ص١٠٨٧ - ١٠٩٠ :

(٧٧) Eugenio d'Ors, "La resurrección de Grecia", in El Nuevo Glosario, octubre-diciembre 1922, Caro Raggio, مدريد، ١٩٩٢، ص١٣٠-١٣١ ;

(٧٨) أنظر Eugenio d'Ors, "Paul Cézanne", La Veu de Catalunya ٢٩-١٠-١٩٠٦, in Obra Catalana Completa , Glosari , 1906-1910, برشلونة، ص٢٨٧-٢٨٨ : و مدريد، ١٩٢٧ Cézanne, Caro Raggio, (أعيد طبعه في مدريد لدى أغويلار، ١٩٦٦). بشأن تأثير رسّام إيكس على الحركة الكتالانية في مطلع القرن، أنظر :
Martí Peran , "Noucentisme I Cézanne : Història d'un dissortat magisteri" D'Art ١٩٩٢، برشلونة، العدد ١٧-١٨ وبشأن فنّ التصوير المتوسّطي الذي نشأ في نهاية القرن التاسع عشر، وصلاته بظهور عطلات الصيف، أنظر : H. Ladendorf, ، «العصر الذهبي، الذي استعاده فنّ التصوير في القرن العشرين على ساحل المتوسّط» في المكتبة العامة للمعهد التطبيقي للدراسات العليا، القسم الرابع، المتوسّط بين ١٩٠٩ و١٩٣٩ . أعمال الندوة التي نظمها «مركز المتوسّط الحديث والمعاصر» (نيس، ٢١-٢٨ آذار/مارس ١٩٦٨) باريس، SEVPEN، ١٩٦٩ ، ص١٧٧-٢٤٨:

(٧٩) Joaquim Torres-García, "Notes sobre art" ،(١٩١٣) in Escrits sobre art ، ص٣٧-٤١ :

(٨٠) المرجع المذكور، ص ٣٩-٤٠، أورده Marí, "L'Esperit clàssic i el retorn a la Mediterrània" ، ص ٣٦ :

(٨١) Joaquím Torres-García , "La nostra ordinació i el nostre camì", in Empori السنة الأولى، العدد٤، نيسان/أبريل ١٩٠٧، برشلونة، ص١٩٠-١٩١، في Escrits Sobre art ، ص ٢٧، مذكور في Vallcorba , Noucentisme, mediterranisme i classicisme ، ص ٣٨-

٤٠ . وذهب الفيلسوف ذو النزعة الإنسانية، ومترجم أفلاطون ونوسنتيّ الجيل الثاني، خوان كريكسلس (Joan Crexells)، إلى حدّ القول إن الشعور بالجمال «وحدهم الفنانون المولودون على ضفاف بحرنا يستطيعون استشعاره» (Joan Crexells, "L'objectivitat de l'art", in La Publicitat برشلونة، ١٩٢١/٨/٧، أورده Jardi, El noucentisme ، ص ٢٦) ؛

(٨٢) Jordi Casassas , El catalisme i la Mediterrània ، مذكّرة مطبوعة على الآلة الكاتبة، ومصنّفة في المعهد الكتالاني للدراسات المتوسطية ، 6912 Catdoc (M ٦) ACCN 6708 ، ص١٨ ؛

(٨٣) Rafael Gay de Montellá, España ante el problema del Mediterráneo , Bloud & Gay ed.١٩١٧ ، برشلونة ; Catalunya nació mediterrània (Assaig sobre la formacio histórica de la nostra cultura), Impta. Aleu, Domingo y Cía, ١٩٣٣ ، برشلونة ; Mediterranismo y atlantismo. Tres ensayos, Ed. Juventud, ١٩٤٣ برشلونة، Valoracion hispánica en el Mediterráneo. Estudios de política internacional , Espasa-Calpe , ١٩٥٢ مدريد ;

(٨٤) Gay de Montellá, Valoración hispánica del Mediterráneo، ص١٢؛

(٨٥) Gay de Montellá, España ante el problema del Mediterráneo, Bloud & Gay éd., برشلونة، ١٩١٧، ص ٢٣٧–٢٣٨ ;

(٨٦) Gay de Montellá, Catalunya , nació mediterrània ، ص٦ ؛ في تلك الحقبة كان مؤلّف كجان ديستيو Jean Desthieux («الوعي المتوسطي»، باريس، منشورات باريزيس ، ١٩٣٦، ص٩٩–١٠٠) يتحدّث أيضاً عن وجود نزعةٍ إنسانية متوسطية جوهرية لها تجلّياتها في الثقافة الكتالانية، غير أنه كان يغفل، على نحو تام، النواحي المتبقية من أسبانيا. وعلى هذا الصعيد كان لافتاً جداً أن ممثل أسبانيا في اجتماع الأكاديمية المتوسطية في موناكو في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٥، خوان أستلريش، كان هو رئيس المجلس الثقافي لكتالونيا. أنظر مداخلته ذات النزعة الكتالونية المعتدلة في «النزعة الإنسانية والمتوسّط»، موناكو، ١٩٣٦، ص ٢٩–٣١ ؛

(٨٧) Gay de Montellá, España ante el problema del Mediterráneo ص ٣٤ ؛ قارن هذه الرؤية القائلة بانتقال مركز الثقل التاريخي للمتوسّط إلى الأطلسي، مع التحليل الأكثر تسامحاً للدور الذي أدّته كاستيًا، في Valoración hispánica del Mediterráneo ، ص ١١٠–١٢٢ ؛

(٨٨) Gay de Montellá, España ante el problem del Mediterráneo، ص٢٣٨ ؛

(٨٩) Carlos Arauz de Robles, Cataluña y Mediterráneo, Voluntad, مدريد، ١٩٣٠، ص ٩٥ :

(٩٠) المرجع المذكور، ص ١٠٧–١٢٧ :

(٩١) Jaume Vicens Vives, Notícia de Catalunya, Ed. Destino, الطبعة الرابعة، برشلونة، ١٩٦٩، ص ٧٤ :

(٩٢) Joan Ferrater Mora, Les formes elementals de la vida catalana, Selecta, الطبعة الرابعة، برشلونة، ١٩٧٢، ص ٢٤ :

(٩٣) Narcís Comadira , "Sobre el mediterranisme : unes notes", in Quaderns d'Arquitectura i Urbanisme، العدد ١٥٣، برشلونة، أيلول/سبتمبر ١٩٨٢، ص ٤٦ :

(٩٤) Oriol Bohigas, " Catalunya y la mediterraneidad ", in Creatividad mediterránea, Instituto de Ciencias del Hombre, مدريد، ١٩٨٣، ص٧٧–٧٨: و"Manuel Vázquez Montalbán, "La mediterrània invertebrada in Angel San Martin (éd.) La Mediterrània : realitat o metáfora, Ajuntament de Gandia/Universitat de Valencia, فالنسيا، ١٩٩٣، ص ٦٩ ;

(٩٥) Saturnino Pesquero Ramón, El Mediterráneo y Joan Miró, Ed. Cap Ferrutx, بالما، ١٩٩٥, و R.S. Lubar , "La Mediterrània de Miró: concepcions d'una identitat in Joan Miro (١٨٩٣–١٩٨٣), Fundació Joan Miró cultural", برشلونة ١٩٩٣، ص ٢٩ وما يليها.

(٩٦) من أعماله ذات المنحى الكلاسيكي، يستحقّ بعضها الذكر كاقتباسه لـAntígona (١٩٣٥) وFedra (١٩٣٧)، وجولة الأفق المقمّشة، لكن الساخرة، في عالم الميتولوجيا المتوسطية في Les Roques i el mar, (١٩٨١).

(٩٧) بورثيل، الكاتب والصحافي والرحالة، كان هو المبادر إلى إنشاء المعهد الكتالاني للدراسات المتوسطية، في برشلونه. وأعمال له مثل La luna y el velero (١٩٧٤)، أو Los Argonautas (١٩٧٥)، هي عبارة عن رحلة طويلة عبر الحوض المتوسطي تتيح لشخصيّاته، كما في «عوليس»، أن يبلغوا الحوافز الأولى لوجودهم، وأن يكتشفوا ضرورة الرجوع إلى نقطة البداية، وأن يعاودوا، على الدوام، ركوب مخاطر السفر.

(٩٨) Racionero , El mediterráneo y los bárbaros del norte , ص ٣٨ :

(٩٩) المرجع المذكور، ص ٧١-٧٢ ؛

(١٠٠) المرجع المذكور، ص ٧٥-٧٦ ؛

(١٠١) لهذا السبب نحن لا نتفق مع رأي جان شيسنو Jean Chesneaux في "1492-1992 , o el buen uso de la Historia", in Manuel Barrios Aguilera & Bernard Vincent (éd.) Granada 1492-1992 , del reino de Granada al futuro del mundo mediterráneo, Grenade Servicio de Publicaciones de la Universidad de Granada, ١٩٩٥، ص ٣٥٨ ، والذي بحسبه «شكّل المتوسّط، منذ القرن الثامن عشر حتّى الحرب العالمية الثانية، مجالاً جغرافياً مستقلاً ذاتياً، تنتظم حاله بفعل التوازنات الإقليمية أكثر منها بفعل موازين القوى العالمية».

(١٠٢) Rafael Gay de Montellá, Diez anos de política internacional en la Mediterráneo, 1904-1914 (Ensayo de historia politica moderna) Impta. De la Casa Provincial de la Caridad , s. a. برشلونة، ص٨ ؛

(١٠٣) المرجع المذكور، ص ٧٧ ؛

(١٠٤) مذكور في Gay de Montellá, España ante el problema del Mediterráneo ص ٢٠٠-٢٠١ ؛

(١٠٥) خطاب كامبو في ١١-٥-١٩١٤، مذكور في Gay de Montellá , España ante el problema del Mediterráneo، ص ٢٠٤-٢١٠ ؛

(١٠٦) Juan Vázquez de Mella, Discurso íntegro de los "tres dogmas nacionales" pronunciado en el teatro de la Zarzuela el 31 de mayo de 1915, Artes Graficas Diana , مدريد، ١٩٤١، ص٤٦-٤٨ ؛

(١٠٧) El Correo Español , ١٣-٩-١٩١٤ ، مدريد، ص١؛

(١٠٨) Fernando Suárez de Tangil et de Angulo, conde de Vallellano, El problema mediterráneo en su aspecto internacional, Impta. De Juan Pérez Torres, ١٩١٦، مدريد. ص٤٧-٤٨ و٥٥-٦٠ وخاصّة ص٦٠، حيث كان Vellellano يدعو، علاوةً على ذلك، إلى تدعيم المثلثات الدفاعية في المضيق وحوض المتوسّط الغربي مثل كاديكس-طنجة-جبل طارق، جبل طارق-سبتة-قرطاج أو قرطاج-إيبيزا-بالما المايوركية، بالإضافة إلى نقطة ماهون الاستراتيجية التي يهدّدها المثلّث الاستراتيجي الفرنسي طولون - وهران- بيزرت.

(١٠٩) خطاب رومانونيس في مايوركا (٤-١٩١٥)، مذكور في Gay de Montellá, España ante el problema del Mediterráneo ص ٢٢٨-٢٢٩ :

(١١٠) Vincente, Blasco Ibáñez, Mare Nostrum, Instituto de Cultura Juan Gil Albert, ١٩٩٤، ص ١٨٩-١٩٠ ;

(١١١) Gabriel Miró, "El Ángel, el molino, el caracol del faro", in Obras completas de Gabriel Miró , Madrid Biblioteca Nueva, ١٩٦٩, ص ٧٥٦ ;

(١١٢) Fernando Albi , La política del Mediterráneo en la postguerra (١٩١٨-١٩٢٨), Tip. P. Quiles, فالنسيا، ١٩٣١، ص٤ ;

(١١٣) Fernando Morán, " Políticas Árabes en Europa", in Bernabé López García (éd.) Europa y el mundo Árabe en la políttica mediterránea ص٢١ ;

(١١٤) أنظر بهذا الشأن Susana Sueiro Seoane, España en el Mediterráneo, Primo de Rivera y la "cuestión marroquí", 1923-1930 , UNED , مدريد، ١٩٩٢ ص ٣٤٦ : وقد أبدى مؤلف مثل Albi , La política del Mediterráneo en la postguerra (١٩١٨-١٩٢٨)، ص ٣-٤ ، معارضته لتحالف مع إيطاليا من شأنه أن يزيد من مخاطر فقدان ماهون في نزاعٍ محتمل مع بريطانيا العظمى لم تكن أسبانيا مستعدّة له على الإطلاق.

(١١٥) Manuel Azaña, "La neutralidad de España", in Causas de la guerra de España, Critica, برشلونة، ١٩٨٦ ص١٤٥-١٥٧: لقد جرى، وبيراعةٍ ملحوظة، تلخيص الأسباب الاستراتيجية التاريخية التي تدعم هذه «البغضاء الفطرية» إزاء فرنسا وانكلترا، في الفصل الخامس عشر من كتاب Salvador de Madariaga , España , CIAP , مدريد، ١٩٣١ ;

(١١٦) Camilo Barcia Trelles, Puntos cardinales de la política internacional española , Barcelone , Éd. FE, برشلونة، ١٩٣٩، ص٣٧١-٤٧٧ ;

(١١٧) José Miguel Ruiz Morales , España y el Mediterráneo. Coferencia pronunciada el 25 de mayo de 1927 en la Escuela Diplomática, Oficina de Información Diplomatica, مدريد، ١٩٧٢، ص ٩ ;

(١١٨) Camilo Barcia Trelles, La política internacional de España y el destino del Mediterráneo, Valladolid, Universidad, ١٩٤٦ ص٢٢ . كان هذا المؤلف يتخذ مثلاً الخيار المختلف الذي تبنّته إيطاليا عام ١٩١٥ (تحالف بحري مع فرنسا وإنكلترا في حوض المتوسّط) وفي عام ١٩٤٠ (التحالف القارّي الدراماتيكي مع الرايخ، الذي جعل البلاد معزولة وفي مهبّ القوى المتوسطية الأخرى، كما جرى فعلاً في عام ١٩٤٣).

(١١٩) Carlos Ibáñez de Ibero, marquis de Mulhacén, Política mediterránea de España , 1704-1951, Madrid Instituto de Estudios Africanos del CSIC, ص٧, ١٩٥٢ ;

(١٢٠) Victor Morales Lezcano , "D. Emilio García Gómez : de arabista a embajador" in IV Congreso Internacional de Civilisación Andalusí. Homenaje al illustre arabista D. Emilio Garcia Gomez , القاهرة، قسم اللغة والآداب الأسبانية، كلية الآداب في جامعة القاهرة، ١٩٨٨، ص٥٣ :

(١٢١) Carlos Ibáñez de Ibero, marquis de Mulhacén, Anteproyecto para la fundación de un Instituto de Estudios Mediterráneos, ١٩٥٥ ,مدريد, ص٧ : كان المشروع يقترح بثّ ما يزعم أنها قيم تقليدية موروثة عن الحضارة المتوسطية وثقافتها، وقد ألحق ببرنامج معقّد من الدراسات التاريخية للمنطقة، يبدأ من الحضارتين المصرية والسومرية لينتهي – وهذا أمر بالغ الدلالة – مع التوقيع على الاتفاقية الأسبانية الفرنسية عام ١٩١٢ .

(١٢٢) Miguel Ángel Moratinos, " Papel de la Carta en la política exterior de los Estados mediterráneos " in Grupo Carta Mediterranea, Memoria de la reunión de Sevilla para la Convocatorial al debate por una Carta Mediterránea, Madrid, مدريد، ١٩٩٣، ص٤٠ ;

(١٢٣) José luis Sampedro, "Los problemas planteados a la economía de los países mediterráneos por el desarollo del mercado Común" in Raymond Aron, José Luis Sampedro, Ramón Tamanes, José L. Sureda, Jean Cuisenier , España en el desarollo mediterráneo, Insula , مدريد، ١٩٦٤، ص١٧ ;

(١٢٤) Luis Carrero Blanco, La victoria del Cristo de Lepanto, أنظر: Editora Nacional , ١٩٤٨، مدريد، الطبعة الثانية
Estella , Salvat/Alianza , ١٩٧١ .(١٩٧١–١٥٧١) Lepantoو

(١٢٥) Idéal ، غرناطة ، ١٩٧٢/٧/١ ؛ وفي مقالةٍ أخرى نشرت في آخر العام، قيل إنّ هذا " الحوض الداخلي للكرة الأرضية (كان) أحد المراكز الأكثر أهمية لبثّ الفكر الجامع، وأن وطننا كان جزءاً منه، إلى يمينه تماماً، لأسباب اقتصادية وجغرافية وتاريخية(...) ترى هل يقيّض لأسبانيا مجدداً، ومرّة أخرى في تاريخها الخصب الطويل، أن تستردّ المشعل وتحمله لكي تنير تطوّر الفكر في قطاعٍ مهمّ من العالم الغربي ؟ (1972-«Despertar mediterráneo», ABC , 10-XII ، ص٣)

(١٢٦) Nazario Yuste, Fausto Romero, El Mediterráneo. España. Almería, Almería, ألميريا، ١٩٧٥، ص٩ ;

(١٢٧) أنظر Treballs de la III Conferència Mediterrània a Barcelone, 1978. Auspiciada per l'Anjuntament de Barcelone, el "Dowling College" de Nova York, la " Del Mar Foundation "I" The Academy of Research Historians of Spain", Ajuntament, Institut Municipal d'Historia, واشنطن، برشلونة، ملحق بالعدد الحادي والعشرين لـ Quaderns d'Historia Economica de Catalunya تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٠. جرى المؤتمر الأول في مايوركا في العام ١٩٧٣، والثاني في مالطا عام ١٩٧٦.

(١٢٨) "El Mediterráneo en un escritor atlántico: Álvaro Cunqueiro Carmen Ruiz Bravo, (١٩٨١-١٩١١)"
في: الجمعية العالمية لدراسات الحضارات المتوسطية – المعهد الوطني لعلم الآثار الفنية في تونس ، «الإنسان المتوسطي والبحر. وثائق المؤتمر الدولي الثالث لدراسات وثقافات المتوسّط الغربي» (جربة، نيسان/أبريل ١٩٨١)، تونس، منشورات سالامبو، ١٩٨٥، ص ٥٣٠-٥٣٥.

(١٢٩) «المتوسّط»، في «درسٌ في التاريخ» لفرنان بروديل، شاتوفالون / تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٥، باريس، آرتو/فلاماريون، ١٩٨٥، ص ٦ و٥٣ ، ١٩٨٧ :

(١٣٠) Vicenç Fisas, Paz en el Mediterráneo, Lerna، برشلونة، ص ١٧ :

(١٣١) Miguel Ángel Moratinos, La política española en el Mediterráneo y en Oriente Medio, Dirección General de Política Exterior para África y Medio Oriente, مدريد، ١٩٩٥، ص ١٣ ;

(١٣٢) حول تقلّبات هذه السياسة ومحصّلتها، أنظر :

Bichara Khader , Europa y el Mediterráneo. Del paternalismo a la asociación, Icaria, ؛ برشلونة، ١٩٩٥، ص ٢٤-٣٢ ;

(١٣٣) Mahlaine Djebaili, "L'Union du Maghreb Arabe et le projet de la Méditerranée Occidentale",
(اتحاد المغرب العربي ومشروع المتوسّط الغربي)، في (.M.L. Dumas (ed
Méditerranée Occidentale: Sécurité et Cooperation, Paris, FEDN, 1992,
(المتوسّط الغربي: أمن وتعاون : باريس، ١٩٩٢) ص١٧٦ :

(١٣٤) بشأن هذه المبادرات، أنظر Khader, Europa y el Mediterráneo,
ص٤١-٥١ و ٥٩-٦٧ :

(١٣٥) "La distracción mediterránea", in Cinco Días مدريد، ٢٦-١٠-١٩٩٤ :

(١٣٦) لنظرة إجمالية على هذه السياسة المتوسطية المتجدّدة التي تبنتها السوق الأوروبية المشتركة، راجع : Khader, Europa y el Mediterráneo
ص٣٣-٣٦ :

(١٣٧) كانت النقاط الجوهرية في هذه السياسة هي ضمان أمن بلدان المنطقة كافّة والإسهام، على نحوٍ أكثر فاعلية، في الاستقرار العام: الحثّ على تنمية اقتصادية واجتماعية متوازنة عبر تخفيف بؤر عدم التوازن الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية والسياسية والثقافية القائمة؛ إنشاء إطار تستطيع من خلاله ثقافات مختلفة أن تتعايش سلمياً وأن تتعاون؛ إحلال نظامٍ مستقرّ ومتضامن في المنطقة، وذلك عبر تفعيل دينامية الثقة ورحابة الصدر كبديلٍ عن المواجهة التي غلبت في أكثر من مناسبة: إقامة مجالٍ من علاقات حسن الجوار عبر إيجاد نظامٍ للمسؤولية المشتركة، والتجاوب مع واقع ارتباط بلدان المنطقة بعضها ببعض، وإشراك منطقة المتوسّط بوصفها شريكاً فاعلاً في النظام العالمي الجديد الناشىء.

(١٣٨) Ministry of Foreign Affairs, The Mediterranean and the Middle East after the War in the Gulf: the CSCM, ؛ روما، ١٩٩١، ص٦٢-٦٩ ;

(١٣٩) لتفاصيل مبادرة مجلس الأمن والتعاون المتوسّطي، راجع Khader , Europa y el Mediterráneo ، ص٥٣-٥٨ :

(١٤٠) Documento final de la I Conferencia interparlamentaria sobre Seguridad y Cooperación en el Mediterráneo
مالاغا، حزيران/يونيو ١٩٩٢ ، ص٩ : أنظر أيضاً Khader ، المرجع المذكور، ص٦٣-٦٧ :

(١٤١) «إعلان برشلونة الذي جرى تبنيه خلال المؤتمر الأوروبي المتوسطي (٢٧–٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥)» في Forum Civil Euromed برشلونة، ١٩٩٥، ص٤٣–٣٦٧ ؛

(١٤٢) بول بالتا ، «المشروع الثقافي الأوروبي المتوسطي»، Méditerranée Confluences (باريس)، العدد ٢١ ، ربيع ١٩٩٧، ص٢٧–٣٣. وحول العناوين الرئيسية لهذه المحاضرة أنظر Khader, Europa y el Mediterráneo ص ٧٨–٨٣ ؛

(١٤٣) «الثقافة، عنصر ضروري للاتصال»، في Forum Civil Euromed برشلونة، ١٩٩٥، ص ١٨٢ ، ١٨٩ ؛

(١٤٤) "Asociación Mediterránea", in La Gaceta de los Negocios مدريد، ٢١–١٠–١٩٩٤ ؛

(١٤٥) Jose Maria Jover, "La percepción española de los conflictos europeos: notas históricas para su entendimiento", Revista de Occidente مدريد، ١٩٨٦، عدد ٥٧، ص ٤٨ ؛

(١٤٦) Amin y Yachir, El Mediterráneo y el mundo. La aventura de la transnacionalización ص ٣٧ ;

(١٤٧) Javier Solana, "NATO and the Mediterranean", in Nicolas A. Starvou, Raymond C. Ewing (éd.), Mediterranean Security in the Crossroads. Mediterranean Quarterly: A journal of Global Issues عدد خاص من (Duke University, Durham)، الجزء الثامن، العدد ٢، ربيع ١٩٩٧، ص ١١–٢٠ ؛

(١٤٨) Miguel Herreo de Miñón, "Seguridad en el Mediterráneo", La Vanguardia, برشلونة، ٩–١٠–١٩٩٤ ;

(١٤٩) Kacern Basfao , Jean-Robert Henry, "Le Maghreb et l'Europe: Que faire de la Méditerranée ?" (المغرب وأوروبا : ما العمل بالمتوسّط ؟) في Vingtième Siècle، باريس، تموز/يوليو–أيلول/سبتمبر ١٩٩١ (عدد خاص بالمتوسّط)، ص ٤٨ ؛

(١٥٠) خطاب الملك خلال تقليد إدغار موران الـ Premio internacional Cataluña (١٩٩٤)، مذكور في Planeta, Baltasar Porcel, Mediterráneo, tumultos del oleaje. برشلونة، ١٩٩٦، ص٤١٥ ؛

(١٥١) Predag Matvejevic, "Europa y el Mediterráneo", El País, مدريد، ١٩-٥ – ١٩٩٤ ، ص ٩-١٠ ؛

(١٥٢) Pere Luis Font, "Monoteisme. Dialéctica entre Jerusalem I Atenes", في Georges Duby (dir.)
Els ideals de la Mediterrania dins la cultura europea, Enciclopedia Catalana، برشلونة، ١٩٩٥، ص ٢٦٩ ؛

(١٥٣) Shlomo Ben-Ami, "El Mediterráneo: causa perdida o un reto que hay que afrontar?", in Maria Angels Roque (ed.), Identidades y conflicto de valores. Diversidad y mutacion en el Mediterráneo, Institut Català de la Mediterrànea d'Estudis I Cooperació، برشلونة، ١٩٩٧، ص ٣٠٣ ؛

(١٥٤) المرجع المذكور، ص ٣٠٤ ؛

(١٥٥) أنظر بهذا الشأن Vazquez Montalbán "La Mediterrània invertebrada", in San Martin (éd.), La Mediterránea: realitat o metáfora، ص ٦٨ ؛

(١٥٦) Shlomo Ben-Ami, "La autoimagen multicultural de la sociedad mediterránea o la ordenación del medio ambiente", in Grupo Carta Mediterránea Memoria de la reunión de Sevilla para la Convocatoria al debate por una Carta Mediterránea, ١٩٩٣ ،٢٥ مدريد، ص ;

(١٥٧) محمد أركون، «الإسلام. أمسِ واليوم». (بالفرنسية) منشورات بوشيه شاستيل، ١٩٩٨، ص١٢٤ ؛

(١٥٨) باسفاو وهنري، «المغرب وأوروبا : ما العمل بالمتوسّط ؟»، ص ٤٦ ؛

(١٥٩) تحقيق دولي حول «المجال المتوسطي» (١٩٩٥)، في: Forum Civil Euromed برشلونة، ١٩٩٥ ,Institut Catala de la Mediterranea ، ص vii ؛

(١٦٠) حول نظام التغذية المتوسطية التي تعتمد القمح والعنب والزيت ووفرة من الثمار والخضار، أنظر:
Isabel González Tormo y Pedro Romero de Solís (éd.), Antropología de la alimentación, ensayos sobre la dieta mediterránea, Sevilla, Fundación Machado/Consejera de Cultural y Medio Ambiente de la junta de Andalucía , 1993; Isabel González Tormo y Pedro Romero de Solís (éd.), Antropología de la alimentación. Nuevos ensayos sobre la dieta mediterránea, 1996; Cesar Aguilera, Historia de la alimentación mediterránea, éd. Complutense, ١٩٩٧, مدريد ; F. Xavier Medina (éd.), La alimentación mediterránea. Historia, cultura, nutrición, Institut Català d'Estudis y Cooperació, ١٩٩٨ , برشلونة ;

(١٦١) يـــــرى Oriol Bohigas, "Catalunya y Mediterrancidad", in Instituto de Ciencias del Hombre , Creatividad Mediterránea ص٧٦، أنّ قول أصحاب النزعة المتوسطية بوجود عمارة متوسطية هو أمر حديث العهد ومرتبط بالنقد الطليعي. أنظر Josef Lluis Sert "Características constantes en la arquitectura y urbanismos mediterráneos" المرجع المذكور، ص٦١-٦٧ : ويرى أنريكي بوفيل أنّ «المتوسّط هو المكان الأكثر أهمية في العالم من حيث الهندسة المعمارية والمدينية حتّى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عندما جعلت الثورة الصناعية من التكنولوجيا المحور الأساسي للبناء لأن المتوسّط يضع الانسان قبالة الأشياء بوصفها مركزاً للتأليف بالغاً محققاً بذلك تلك الغاية أو تلك الأبعاد المذهلة التي نسمّيها نحن الكلاسيكية» (مذكور في ، Porcel Mediterráneo. Tumultos del oleae ، ص٣٨٨). أمّا غارثيا ميركادال (عضو مجموعة المهندسين المعماريين والتقنيين الأسبان من أجل تقدّم العمارة المعاصرة – GATEPAC)، فيرى «أنّ المتوسط ، بشره ومنازله الشعبية القديمة التي لم يصمّمها مهندسون معماريون، لم تتعرّض، لحسن الحظّ، لأعمال نهبٍ جديدة، فما زالت مواريث اليونان وروما والإسلام، السليمة جزئياً، تنعكس على صفحة مياهه، وما زالت تستحقّ أن نعيرها انتباهنا. لقد لاحظنا أوجه شبه بين المنازل الشعبية في جزر بحر إيجه، وبين منازل خليج نابولي، وبين منازلنا في جزر الباليار، الأمر الذي حثّنا على البدء بدراساتنا بعد إقامة طويلة في نطاق كابري وصقلية واليونان الكبرى حيث عثرنا على الهياكل الدورية الأقدم بعد دراستنا حول المساكن في بومبايي، أي حرفياً، «بيت الحيوان». لقد ألفنا أولاً مبحثاً حول فنّ العمارة الصغرى في روما. وقد أثبتت هذه الأعمال، مع بعض الملاحظات والهوامش، حول المساكن الشعبية التي صاحبت أطروحتنا عن «البيت المتوسطي»، في معرض الأشغال للتلامذة المقيمين في أكاديميتنا الرومانية في العام ١٩٢٥

(Fernando Garcia Mercadal , Sobre el Mediterráneo. Sus litorales, sus pueblos, culturas (Imagenes y recuerdos). Discurso leído por arquitecto D. - el día 20 de abril de 1980 con motivo de su recepcion en la Academia de Bellas Artes de San Fernando, ١٩٨٠، مدريد، ص٣٥-٣٦). يستعرض المؤلف السمات الغالبة التي تميّز هذا النمط من الإنشاءات : «جفاف، مناخ عذب ومُرضٍ، أمطاره نادرة، نقاء هوائه، وسكونه أيضاً.» (ص٢١-٢٢). أمّا مميزات البناء فمن شأنها أن تكون على النحو التالي : سقيفة للشرفة، غياب الزخارف، وظائفية بسيطة وعصور قبل التكعيبية في الهندسة المعمارية. البساطة، التقشّف، الاتساق، والطابع المعياريّ المتكرّر.

(١٦٢) Baltasar Porcel , Carrefour de volontés, (منعطف الإرادات) في: Forum Civil Euromed ، ص ٢٤-٢٥ ؛ و Racionero ، El Mediterráneo y los bárbaros del Norte ص ٥٦-٦١ ؛

(١٦٣) Fisas, Paz en el Mediterráneo، ص ٢٧-٤٣ ؛

(١٦٤) أنظر
Bernabé López García, " Ósmosis o barreras? Las responsabilidades de una Europa rica en tiempos de crisis ", in B. López García (éd.), Immigracion magrebi en España : el retorno de los moriscos, Ed. MAPFRE ، مدريد، ١٩٩٣، ص٥٣٢-٥٤١ ؛

(١٦٥) حول الصورة المتبادلة للأفارقة والأسبان، أنظر:
Victor Morales Lezcano (dir.) Immigración africana en Madrid : marroquíes y guineanos (١٩٧٥-١٩٩٠) , UNED, مدريد، ١٩٩٣
وعلى الأخصّ الفصلين السادس والسابع.

(١٦٦) Sami Naïr , "El Mediterráneo : causa perdida o un reto que hay que afrontar ?", in M. A. Roque (éd.), Identidades y conflicto de valores. Diversidad y mutación social en el Mediterráneo, ص ٢٥٧-٢٥٨ ؛

(١٦٧) Vázquez Montalbán, "La Mediterrània invertebrada", in A. San Martin (ed.), La Mediterrània : realitat o metàfora, ص ٧١ ;

(١٦٨) Victor Morales Lezcano, El Mediterráneo (II). Edades Moderna y Contemporànea, EUDEMA, مدريد، ١٩٩٣، ص٩١ ;

(١٦٩) Guillermo Fatas، الدرس الافتتاحي في III Curso de Defensa "El Mediterráneo en el diálogo Norte-Sur". Jaca, Septiembre 1995, Saragosse, Servicio de Publicaciones de la Academia General Militar ١٩٩٦، ص ٢٢-٢٣ ؛

(١٧٠) Vázquez Montalbán, "La Mediterrània invertebrada", in A. San Martin (éd.), La Mediterrània: realitat o metàfora , ص ٧٢ ;

(١٧١) Carlos María Bru, "Repercusiones de la unificacivón europea en la política mediterránea", in Instituto de Ciencias del Hombre, Creatividad mediterránea , ص٢٧٧ ;

(١٧٢) Hugues de Jouvenel y María Ángels Roque (dir.) Cataluña en el horizonte 2000 Perspectiva Mediterránea, Institut Català de la Mediterrània, برشلونة، ١٩٩٤، ص ٢٧٨ ;

(١٧٣) Bernabé Lopez Garcia, "El test de las migraciones", El País Suplemento Temas de Nuestra Epoca dedicado a "Una mirada ai Mediterráneo, مدريد، ١٤-٧-١٩٩٤، ص ٦ ;

مانويل فاسكيث مونتالبان

المتوسّط اللاافقاريّ

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

لم يكن يسيراً عليّ أن أجد عنواناً يلخّص أفكاري حول المتوسّط. بيد أنّ أوّل ما تبادر إلى ذهني، وما سأنطلق منه في محاولةٍ لصوغ خطابي، يحثّني على النظر إلى المتوسّط بوصفه مجالاً لافقاريّاً، الأمر الذي سيحيل الكثيرين إلى مؤلّفِ أورتيغا إي غاسيت (Ortega y Gasset)، «أسبانيا اللافقاريّة» (١). لقد ارتحلت كثيراً في أنحاء المتوسّط، ما أتاح لي التعرّف إلى متوسّطيين مختلفين جداً فيما بينهم بالمعنى الأثني والثقافي والسياسي. وإذ أستعير طرفة جورج آرنو (Georges Arnaud) – الـذي رأى أن غواتيمالا، حيث تجري أحداث روايته «جزاء الخوف»، هي بلد غير موجود، وهذا أمرٌ له مطلق الحقّ في تقريره، كما يقول، لأنه عاش فيها طويلاً – أجدني أمام إغواء التأكيد بأنّ المتوسّط غير موجود، لأني عشت في المتوسّط، وما زلت، حتّى يومي هذا، أعيش فيه. ولكن، لكي يوجد شيء ما في تمامه – مثلاً، المتوسّط بين الواقع والمجاز – يتعيّن علينا أن نكْسِب وجود المتّحدات محتوىً واقعياً، وأن نكسبها على نحوٍ خاص، غاية واقعية ومادية، لكي يُمكَن الاعتقاد حقاً بهذا الوجود والابتعاد بذلك عن مضمار المجاز. إني قادم من بلدٍ – برغمِ كوني خلاسيًا، وليد الهجرة، وبرغم أني ما زلت كذلك، بأية حال : من الناحية الثقافية واللغوية والاجتماعية والاقتصادية – يؤمن بكلّ ما يستطيع الدفاع عنه. وعليه – ومن منطلقٍ بيئيٍّ على نحوٍ خاص – يتوجّب علينا أن ننقذ المتوسّط، حتّى لو كان دافعنا إلى ذلك هو هذا الغرض وحسب، الذي من أجله ينبغي أن نؤمن بأن المتوسّط موجود لأنه يتوجّب علينا إنقاذه. لقد اعتدنا نمطاً من المعرفة الضحوية (من ضحية) القائمة على ضرورة الاعتقاد بالأشياء التي ينبغي لنا إنقاذها لأننا إذا امتنعنا عن إنقاذها، فسوف تزول إلى الأبد.

أفكار شائعة عن المتوسّط

إنّ الإغواء كبيرٌ بأن يبتذل اقتراحٌ بمثل طموح هذه الأنطولوجيا

المتوسّطية، عبر استخدام العبارة الشائعة في اللغتين، الكاستيانية كما الكتالانية، ومفادها أننا «اكتشفنا المتوسّط للتوّ». ولكن، ترانا ماذا نعرف عن المتوسّط؟ لقد تلقينا جميعاً تعليماً تاريخياً لا يعوّل عليه كثيراً – خاصّة أبناء جيلي، والأجيال اللاحقة أيضاً التي لم تحظَ بأفضل من ذلك – لأن التاريخ العام، الأساسي، وخاصة ذاك الذي يدرَّس في الصفوف الثانوية في أسبانيا، ليس متلائماً كلياً مع الوضع الديمقراطي. فهناك، في جميع الأحوال، وعيٌ جديد، ومعرفة جديدة مرتبطة بعقلانية منبثقة من نموّ الديمقراطية. بالمقابل، لقد تلقّنا، نحن الذين حصّلنا تعليمنا في ظلّ العهد الفرنكوي، عدداً من الأفكار الشائعة والمعارف – فالأفكار الشائعة ليست سلبية تماماً وتتضمّن بعض الحقيقة – مرتبطةً بفهمِ المتوسّط. وأنا أرى أن المتوسّط هو بحرٌ ممتاز، وهو مهد الحضارة الأوروبية – لقد تلقنا، جميعاً هذا الضرب من الأفكار الشائعة المبتذلة التي ليست، في الحقيقة، مبتذلةً إلى هذا الحدّ. لطالما انتظرنا البرابرة من دون أن ننتبه إلى أن المتوسّط، ومنذ نشأته، كان محتلاً من قبل البرابرة ولا خيار أمامه سوى القبول بهم.

أفكارٌ شائعة تاريخية سياسية

إنّ أوّل كيانٍ متماسك، وأوّل متوسّط فقاريّ يتبدّى لنا، قد يكون هو الحوض الروماني. ذلك أن دراسة أكثر تدقيقاً لوجود هذا الحوض تبيّن لنا تعدّداً وتفاوتاً في العلاقات، وفي النُظُم، نستطيع حيالها أن نتكلّم على حوض روماني قائمٍ بخاصّة على تنوّعٍ كبير. فهناك تكمن النشأةُ، بديهةً، ومركز تطوّر سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي واستراتيجي يحافظ على الثوابت الدائمة – وإن كانت متمايزة جرّاء تطوّر التاريخ بالذات – منذ اليونان وحتّى ظهور العملاق التركي كعدو قادمٍ من الشرق الذي كان يتكيّف مع التوازن الداخلي للمتوسّط، في حين أنه كان من الممكن، وبموازاة هيمنة العملاق التركي، ملاحظة انتقال مركز تطوّر التاريخ وتطور

العلاقات السياسية باتجاه الأطلسي.

كان المتوسّط في القرن التاسع عشر حوضاً إمبريالياً ؛ كان الحوض الذي ترى إليه الرأسمالية الحديثة – الخاضعة آنذاك لمبادرة إنكلترا وفرنسا الأساسية – بوصفه الطريقَ لغزو الشرق، مع الأمل في ضمانِ موقعٍ لها في إفريقيا. وبموازاة هذا التوسّع الإمبريالي الذي حققته قوى تلك الحقبة، قد يكون من المجدي الإشارة إلى المتوسّط بوصفه مجرّد أداة، بوصفه موجّهاً مهمّاً نحو الشرق ونحو آسيا، وعالةً على أممٍ أخرى تجهد في استعادة مجالٍ في ظلّ هذه الهيمنة. بهذا المعنى لم تكن أسبانيا لتلعب سوى دور ضئيل، فعلّته في مطلع القرن بالحروب الإفريقية التي كان لها الأثر البالغ في تاريخنا وفي أنفسنا.

نحن نشارك أيضاً في الفكرة الشائعة التي تقول إنّ المتوسّط كان آنذاك في منأى بسببٍ من هيمنة فرنسا وإنكلترا، حتّى لو كان ماثلاً على الدوام خطر «التطلّع الجيوسياسي التقليدي للقياصرة بغيةَ التحكّم بالمضائق». ولكن مهما يكن من الأمر، فإن الذين درسوا التاريخ حفظوا العبارة عن ظهر قلب، لأنها تعكس ما يؤشّر إلى قيام الإمبريالية السوفياتية لاحقاً : لقد كانت الإمبريالية الجيوسياسية الأصلية للقياصرة متجهةً نحو غزو المتوسّط. ومن هذا السياق كانت سياسة المضائق التي سعت لاجتناب وصول الروس، وفيما بعد السوفيات، تكتسب كلّ معناها.

غير أننا كنا أقلّ اقتناعاً، وكنا نعي ذلك – خاصةً مع مرور الوقت، وعندما ننصرف إلى تمارين استعادة ذاكرتنا التاريخية – بالفكرة الشائعة التي تقول إنّ المتوسّط أوشك على أن يصبح حوضاً فاشستياً. حوض فاشيّ تحتلّه جيوش التحالف بين هتلر وموسوليني وجيوش التحالف – ولكن بالدرجة الثانية وعلى نحوٍ غير معلن – مع الفرنكوية، باعتبار أن المحادثات بين فرنكو وموسوليني، جرت على مرحلتين، في أوروبا، وتناولت تقسيم المتوسّط بين هذه القوى. كان لكلّ منهما مصدر إلهامه الخاص :

فموسوليني كان يعتبر أنه وريث الإمبراطورية الرومانية – على الحوض الروماني – وكان ملهمه الأعرق هو فيرجيل، الذي ضمّن «الأنيانذة» تفسيراً مضمونياً وملحمياً لنشأة الإمبراطورية الرومانية، الأمر الذي يتيح له المطالبة حتّى بطروادة القديمة وأن يجعل من شخصيّة أينياس سابقةً، لا بل مرجعاً يبرّر إرادة الهيمنة الإيطالية على المتوسّط. بالمقابل، لم يكن لفرنكو فيرجيله. بل كان مرشده، في مفاوضاته مع هتلر وموسوليني للاتفاق على تقسيم أوروبا المحتلّة من قبل الفاشستية، كتاب أريلثا وكاستييا (Areilza et Castiella) المعنون: «مطالب أسبانية». كان فرنكو في محادثاته مع هتلر وموسوليني، وبعد تلفّظه بترّهاتٍ حول تاريخ أسبانيا، والإمبريالية الأسبانية، والإرادة الأوروبية لأسبانيا، ينهي حديثه دائماً بالاستناد إلى أطروحات كتاب أريلثا وكاستييا، مطالباً بالأورانيس، وهو الاسم الذي كان يعني، في عهد الإمبراطور كارلوس الأول، منطقة من الجزائر تعرف اليوم بوهران. كان فرنكو يحلم بأنّ مثل هذا الحلف مع هتلر وموسوليني – وفي حال انتصار القوى الفاشستية – سيتيح لأسبانيا لا أن تسيطر على الأورانيس فقط، بل أن تصبح هيمنتها نهائية على المغرب بإزاء طرد الهيمنة الفرنسية منها، خاصّة وأن فرنسا كانت تمرّ بفترةٍ حرجة، برغم انحياز بيتان (Pétain) إلى صفّ ألمانيا عبر نظام فيشي. يلاحظ في المحصلة إذاً، وجود محاولة لجعل المتوسّط حوضاً فاشستياً، وهي محاولة لم يسلّط عليها الضوء كثيراً ولم تذع لأنها اعتبرت من الافتراضات غير الواقعية التي يزخر بها تاريخنا.

الأفكار الشائعة الثقافية

على المستوى الثقافي، أنجب المتوسّط أيضاً سلسلةً من الأفكار العامّة، الشائعة، التي ما زالت قائمة إلى اليوم. وتظهر لنا إحداها المتوسّطَ كموجّهٍ لاتصالٍ ثقافي، وتوسّع ثقافات منذ النشأة – حتّى قبل التاريخ البشري – وذلك بفضل الملاحة التي كانت تتيح

لشعوب المتوسّط، عبر التجارة، أن تتواصل فيما بينها، وأن تكتسب وتمارس ثقافةً هجينةً ما. وفي الوقائع، يبدو المتوسّط، عبر التاريخ كلّه وحتّى نهاية عصر الحداثة، مسرحاً للعبةٍ مستمرّة من التواصل واللاتواصل، تخلّلتها فتراتُ تسامحٍ عظيم، والتي استخدمت فيها الحملات الصليبية كتمرينٍ على الجمود العقائدي والفئوية الإيديولوجية ظاهرياً والمتصلة بسببٍ ذي طابع ديني، لكنّه يخفي، في أعماقه، رغبةً أوروبية واضحة في بلوغ الشرق عبر تخطي تلك العقبة التي كان يمثّلها الشرق الأدنى ؛ لقد كان من شأن الحملات الصليبية أن تفتح الطريق في هذا الاتجاه.

كان على المتوسّط أن يقبل، في القرون الوسطى وفي مطلع عصر النهضة، بتعايش الثقافات المتفرّعة من المسيحيّة : الكاثوليكية، البيزنطيون، وظهور الإسلام كقوّةٍ بديلة لإرادة الهيمنة الواضحة، اليهودية... كلّ هذا سواء كان متعايشاً أو غير متعايش، مضطهداً أو غير مضطهد، يجتاز عهوداً اتسمت بقسوة تاريخية فظيعة، ما يحثّ على مساءلة نظرية التسامح بأسرها، والتي لم تسم، في إطار تاريخ المتوسّط، سوى مراحل استثنائية ولم تكن هي القاعدة العامّة.

أفكار شائعة تضفي عليه طابعاً مثالياً

لطالما كان التوتّر بين الثقافات موجوداً، مثله مثل الميثولوجيات المتوسّطية التي نشأت ردّاً على الانطباع بأن المتوسّط هو مجال ضيّق ومحدّد الاتساع، وضعيف، حتّى لو تطلّب ذلك الحاجة إلى الخوف من غزو البرابرة. لقد جثم التصوّر الخيالي للبربري، وللغريب، وللدخيل الذي يأتي ليعدم العلاقات بين البشر، والعلاقات الثقافية، على وعي رجال ونساء المتوسّط، مولّداً الإحساس بمجالٍ مهدّد ودون الأخذ بالاعتبار واقع أن المتوسّط لطالما كان، ومنذ نشأته، مكان عبور، ولقاء، وغزو لهذا الاصطلاح الذي نسمّيه البرابرة. بعد ذلك يجتاز المتوسّط مرحلة أمْثَلَة (أي يجعل فيها مثالياً). ويشكّل رجال النهضة، على هذا الصعيد،

الموجة الأولى من التأسيس الثقافي للأمم التي لها أصل بربري. إذ تحتاج هذه الدول الأمم، في مرحلةٍ ما، إلى تعظيم جذورها الثقافية عبر استعادة مجمل تراثها وعبر بناء انتماء متوسّطي مجمّلٍ ومؤمثل ويكاد ينحصر بالميراث اليوناني اللاتيني، ومن دون الالتفات، في الأغلب، إلى أن الحصّة اليونانية اللاتينية من تراثها، هي بالضبط تلك التي بلغت عصر النهضة، ومتناسيةً، للمناسبة، بأن هذا الانتماء المتوسّطي يدين بالكثير إلى قاطراتٍ ثقافية أخرى، كالإسلام مثلاً، وخاصّة عبر الطاقة الثقافية التي استمدّها من حلوله على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية.

جهد آخر للأمثلة، وفي الاتجاه المعاكس، يرقى بنا إلى عصر الرومنطيقية، وهي الحقبة التي سادتها رؤيةٌ لمتوسّط متغرِّب جعلت بؤرته الأبرز في المتوسّط الشرقي، وفي اليونان وتركيا أساساً. وسوف يغدو الجدل بين اليونان وتركيا – مع بايرون في مضمار الأدب، ومع ديلاكروا في مضمار التصوير – التعبير المجدي عن إرادة الأسطرة، وعن فكرة تشريق المتوسّط. وإذا أمعنا النظر في الأمر لتبيّن لنا أن ما جرى لم يكن مجرّد أمثلةٍ منزّهةٍ عن الأغراض. فلا الشعر ولا الجغرافيا (الشعر باعتباره المجال الأكثر حرية في مجال الأدب، والجغرافيا بوصفها علماً) كانا، تاريخياً، منزهين عن الأغراض. فالواقع أنهما يتحدّران، وعلى الدوام تقريباً، من وعي اجتماعي وسياسي وإيديولوجي، حتّى لو كانت الإرادة الذاتية للشاعر أو للجغرافي لا تصدران مباشرةً عن هذا الوعي. إن الاكتشافات الكبرى، والإثباتات العلمية الكبرى التي حقّقتها الجغرافيا في القرن التاسع عشر ليست، على المستوى العلمي، خاليةً من الأغراض، أو محايدة – في إطار تطلّب الحياد الذي طالما أبداه العلم – بل هي نتيجة للتوسّع الإمبريالي. فلولا إرادة الهيمنة الإقليمية التي شكّلت دافعاً لجغرافيي الإمبراطوريات وجيوش فرنسا وانكلترا في القرن التاسع عشر، لما شهدت الجغرافيا، بالتأكيد، مثل ذاكَ التطوّر المذهل. ولما وجدَ كتاب أمثال جول فيرن (Jules Verne)، على سبيل المثال، أو سالغاري

(Salgari)، بما يمثلانه من خدمة لهذه الإرادة، عبر انشاء معرفة جغرافية لعالم محتلّ أو ينبغي احتلاله، كما إرادة خلق مخيّلةٍ لعالمٍ لم يكن أحد ليلتفت إليه إلاّ بوصفه أرضاً لغزو محتملٍ أو وشيك. كان التفات الشعر الرومنطيقي الأوروبي إلى المتوسّط الشرقي، يترافق، جزئياً، مع فكرة التوسّع الإمبريالي، وتقويض الإمبراطورية التركية الذي سيفتح أبواب التوسع الإمبريالي الأوروبي باتجاه الشرق، أي باتجاه الأقاليم المطلوب إلحاقها.

أفكار النوسنتية[٢] الشائعة

هناك أيضاً – والثقافة الكتالانية توفّر لنا برهاناً على ذلك – جهدٌ لاستعادة المتوسّط بذلته النوسنتية التي تتميّز، جزئياً، بالرجوع إلى معيارٍ ما – بعد مجون الحداثية، بحسب النوسنتيين – ولكنها تتميّز أيضاً، وفي بعض الحالات، بمحتوى ذي طابعٍ ما قبل فاشستي، أو فاشستي إجمالي. إنّ الانتماء المتوسّطي الذي دعا إليه بعض أتباع النوسنتية، موسومٌ بإرادة تشييد بنية فوقية متوسّطية قائمة على فكرة أن الإنسان المتوسّطي حاملُ قيمٍ سرمدية. ولا تبدو هذه الفكرة بعيدة كل البعد عن القراءة التي قام بها تيار إيطالي مشابه، كان يدعو إلى بناء متوسّط قائمٍ، في أكثر من وجه، على هذه الإرادة في استعادة الإمبراطورية الرومانية، والتي ألهمت فيما بعد كلّ رطانة دانونزيو وموسوليني الصوفية.

كل هذه الأفكار الشائعة – المتفرّعة من معرفةٍ جادّة ومرشّحة للتاريخ وفق ترابط القوى الثقافية في كلّ حقبة، وترابط أشكال الوعي السائدة، والمعارف السائدة، وأيضاً الثقافات وأشكال الأمثلة التي خضع لها المتوسّط – تجعلنا شبه عاجزين عن تمييز الحقيقة من الكذب، أو من الحقيقة المضادة، التي لها دلالة الكذب نفسها. والحال أن ما يجري هو تمرين يجب أن نرى إليه بوصفه تمهيداً ضرورياً لبلوغ تلك النقطة الإلزامية حيث نتساءل في سرّنا حول ضرورة أو لاضرورة أن نؤمن بالمتوسّط، سواء كان واقعاً أو مجازاً. أقترح، في البداية، سؤالاً : هل المتوسّط موجود ؟ وقبل

الإجابة، علينا أن نشير إلى طابعين : فالمتوسّط بحرٌ، وهو موجود حقاً، ضمن حدودٍ متعيّنة ؛ ولكن إذا انطلقنا من زاوية نظر مختلفة وجدنا أنّه مجرّد زائدةٍ للمحيط الشامل الكبير. أي أنّ المتوسّط، كمجرّد بحرٍ، هو أمر قابل للنقاش. ويقال أيضاً إنّ المتوسّط مناخ. ولكن في كاليفورنيا لديهم مناخ أيضاً، ومهما بلغت نزعة التوسّع لدى الإنسان المتوسّطي، فإنه لن يتمكّن من فرض سيطرته على كاليفورنيا. وبالتالي، نجد أنفسنا أمام واقعين شبه ماديين – بحر ومناخ – مرئيين، على الأقلّ، من مسافةٍ ما، وذلك بعد الاعتراف سلفاً أنهما يطرحان بعض المشكلات. فيما يعنيني، أنا، وباستباق لخلاصة أفكاري، فإني أؤمن بوجود المتوسّط، أؤمن بوجود المتوسّطي، كما أؤمن بوجود الانتماء المتوسّطي.

الخطوط والمجالات المتخيّلة

قبل الإجابة عن سؤال الفقرة السابقة، أردت أن أكون محامي الشيطان، وأن أسأل نفسي عن معنى الخطوط والمجالات المتخيّلة في الثقافة. إن الذين يكرّسون أنفسهم للأدب قد عانوا الكثير من الخطوط المتخيّلة : كان علينا أن نتحمّل «المذاهب»، و«الأجيال»، وأموراً أخرى سرعان ما تتحوّل إلى صناعاتٍ ثقافية صغيرة (كما، على سبيل المثال، الصناعة الثقافية لجيل ٩٨، وصناعة جيل ٢٧، إلخ...). صناعات ثقافية صغيرة، وعلى الأخص، خطوط متخيّلة صغيرة تستخدم، كما المتوازيات أو خطوط الزوال، كنقاط اعتلام، هذا إن لم ينتهِ بها الأمر بأن تتحوّل إلى مياه آسنة، فلا يعود ممكناً أن يعمد أحدٌ إلى قراءة أحد أبناء هذا الجيل أو ذاك، بل يعلم الجميع إلى أي جيلٍ ينتمي. ثمّ يحدث، بصفةٍ عامّة، أن تقرأ آثورين (Azorín) أو فالي–إنكلان (Valle-Inclán) فتكتشف طولَ المسافة التي تفصل، على أكثر من صعيد، بين كاتبٍ وآخر.

مع المذاهب («les ismes ») تجري الأمور على نحوٍ مشابه تقريباً : فنحن ندرس تحت وطأة التنادر بأنّ الانتقال من

الرومنطيقية إلى الكلاسيكية الجديدة، بدأ في يومٍ محدّد. لكننا نكتشف مع الوقت بأن الحدود غائمة جداً وأن عناصر من الرومنطيقية استمرّت لدى الكلاسيكيين الجدد، كما وُجِدَت عناصر كلاسيكية جديدة لدى الرومنطيقيين. ذلك أن تطوّر الثقافة يخضع لمنطق داخلي يتّصل بالعلّة المنطقية للتاريخ وللتطور الاجتماعي، لكنّه يمتلك أيضاً نقاط اعتلامه الخاصّة.

إذا كان يتعيّن أن نحاذر الخطوط المتخيّلة، فالأحرى أن نحاذر المجالات المتخيّلة. خاصّة عندما يكون الغرض من بناء المجالات المتخيّلة، كما هي الحال في معظم الأحيان، هو التسبّب، عبر المقارنة بالمجالات الحقيقية، ببعض التشوّش. لنأخذ أوروبا مثلاً : هل أوروبا هي مجال حقيقي أو مجال متخيّل ؟ هل المتوسّط هو مجال حقيقي أو مجال متخيّل ؟ فما هو الغرض الكامن وراء اقتراح مرجعية أوروبية، أو مرجعية متوسّطية، لعرقلة التوصّل إلى الخلاصة القائلة إنّ العالم اليوم هو شاملٌ، وأن ترابط القوى، في الواقع – سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية – يؤدّي إلى شمولية وإلى عقلٍ جامعٍ، وليس إلى عقلٍ أوروبي، حصراً، أو ذي طابعٍ متوسّطي ؟ ما يعني أن كلّ تفكير، مهما كانت طبيعته، يجب أن يبدأ بتقويمٍ مسبقٍ لمعنى إرادة التضليل أو إعادة التوجيه هذه، والتي هي بمتناول وسائل خلقِ الرأي العام والوعي – وسائل هي عوامل شمولية وانتظام – وتستطيع أن تبتكر أدواتٍ لإقناعنا بأن المتوسّط موجود، وبأن أوروبا موجودة، وبأنه قد توجد أيضاً أية بنية فوقية أخرى قادرة على إلهائنا عن فهمِ ما هو موجود جوهرياً، أي «القرية الكوكبية»، وما هو موجود حقاً : العالم بكلّ شموله.

نظام واضطراب دوليان

لا يندر أن تكون اقتراحات المجالات المتخيّلة البديلة والمضلّلة، ثمرة الحاجة إلى حجب أزمة نظامٍ ما أو نسقٍ ما،

وخاصّة خلال الفترات الانتقالية من اضطرابٍ إلى آخر. الأمر الذي يحثّ على أمثلةٍ وبناء مخيّلاتٍ بديلة. وربّما يتضح ما نذهب إليه هنا من خلال مَثَل: لقد قرأت ذات يوم بكثير من الاهتمام بأن غورباتشيف وبوش اجتمعا في مالطا، حيث عملا سوياً على إزالة النظام واضطراب النظام الدوليين اللذين جرى بناؤهما خلال مؤتمر يالطا. فلم يكن مستهجناً إذاً أن تكون مقالتي التي حرّرتها للمناسبة، بعنوان: « من يالطا إلى مالطا». والمؤكّد أن المكانين يقعان في نواحي المتوسّط، ولكن قد تجدر الإشارة إلى أن ما تحوّل إلى مجرّد عنوان، أو لافتة، أو غلاف، لم يكن أقلّ من تحويلٍ بالغ الخطورة للنظام الدولي لم نخرج منه بعد، ولم نتوصّل عبره إلى اضطراب جديدٍ في هيئة نظام، قادر على منحنا بعض السكينة. ومن يستغرق في أوضاعٍ مماثلة، لا يكون عسيراً عليه أن يقع في إغواء المجالات المتخيّلة البديلة التي تعقّد بدلَ أن تسهّل عملية الفهم الفعلي للعالم، ولنظام العالم الذي نحيا فيه. إذ نجد أنفسنا شهوداً على استبدال اضطراب منظّم باضطرابٍ لا يتمكّن أحد، للوهلة الأولى، أن يرتّب مجرياته (وأوروبا تقدّم لنا البرهان الساطع على ذلك، مع ما جرى في يوغوسلافيا السابقة التي شاءت المصادفة أن تكون أرضاً فاصلةً بين العملاق التركي وبين أوروبا التقليدية المسيحية). إنّ النُظُمَ الدولية تنشأ عبر ترابطِ ما بين قوىً ومراحل متعيّنة ذات طابع ردعيّ. وبهذا المعنى فإنّ الحروب ضرورية بوصفها عناصر إحلالٍ للنُظُم الجديدة، ما جعلها تُعتَبر كأدواتٍ فعالة لإعادة التقسيم. عندما تضع حرب أوزارها، تنشأ توازنات من شأنها أن ترسم صورة نظام دولي جديد. وهذا النظام يحلّ على الدوامِ محلّ آخر، لكنه يخفي في صلبه اضطراباً شديداً من شأنه أن ينفجر في أي وقت، ويظهر حجمه الحقيقي.

الحوض المتوسّطي

لقد كان المتوسّط، تحديداً، موضعاً من العالم، حوضاً من العالم، يشتمل على بضعة بلدان اجتمعت فيها كل علاقات الهيمنة

في التاريخ الذي يعنينا. المتوسّط هو حوض متبقٍّ، من وجهة النظر السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والبيئية، من النظام واضطراب النظام الدوليين. إنه حوض متبقٍّ من تبعات الحروب من أجل الهيمنة ضدّ الإمبراطورية التركية، وحوض متبقٍّ من بروز الإمبريالية الحديثة التي كانت ترى إليه بوصفه مجالاً للتوسّع باتجاه المتوسّط الشرقي، وكان إطاراً جوهرياً بوصفه بحراً استراتيجياً للسيطرة على الشرق الأدنى – في نظر الفرنسيين والإنكليز – ونوايا تقطيع أوصال الإمبراطورية التركية. وليس قيام دولة إسرائيل كموقع متقدّم للمصالح الغربية في المتوسّط الشرقي، سوى جزء من هذه الاستراتيجية. أي أننا حيال بحر هو، بالمعنى الدقيق، مصبٌّ لمصالح القوى العظمى في بناء وتقويض ثمّ إعادة بناء نظام دولي. وفي إطار هذه العلاقة، نلاحظ أن القوى المهيمنة العاملة على تقسيم العالم الحقيقي (في أواخر القرن التاسع عشر) – وفي المقام الأول إنكلترا وفرنسا، وكقوتين إمبرياليتين جديدتين، ألمانيا الموحّدة على يد بيسمارك، والولايات المتحدة الأميركية – لطالما وجدت في صفّها أمماً أخرى أقل منها قوة ونفوذاً تحاول أن تنتفع من فضلات مأدبة الكبار. وهكذا نرى كيف يتحوّل المتوسّط أيضاً إلى حوض لصيد الأسماك، الأمر الذي قد يفسَّر بأنه نذيرٌ برغبة الكوديلو المستقبلية في أن يكرّس بقية حياته للقنص وصيد الأسماك. انطلاقاً من هذا التقاسم للنفوذ بين إنكلترا وفرنسا، نرى إيطاليا في سعيها للحصول على موقع قدم في ليبيا وفي رودس، أو أسبانيا الساعية هي أيضاً للحصول على موقع قدمٍ في إفريقيا الشمالية، ما يمثّل برهاناً ساطعاً على أن هذا التوازن، هذا النظام الدولي، ينعقد فوق ساحةٍ خليقةٍ بالاعتبار، حتّى لو كانت هناك بحار أخرى ومحيطات أخرى تفوقها أهميّة.

شمال/جنوب ومتوسّط

من الناحية الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية، تكبّد

المتوسّط وعانى من تبعات الحرب الباردة، وقد شهدنا الطريقة التي تمّ فيها استبدال الوصيّ عليه : من هيمنة إنكلترا بقواعدها القائمة على الجزر الأبرز من حيث الأهمية في المتوسّط الشرقي، أو هيمنة فرنسا المماثلة على المتوسّط الغربي، ومحاولتهما الأخيرة لاستعادة الزعامة عبر التدخّل الفاشل في السويس عام ١٩٥٦، إلى تنظيم المنتصرين في الحرب العالمية الثانية – الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي – قسمتهما للمتوسّط. هكذا أصبحت تطلعات القيصر بشأن «اجتياز المضائق» حقيقة واقعة، وبلغ الأسطول السادس التابع للولايات المتحدّة البحر المتوسّط. وبذلك أصبحت الأساطيل السوفياتية والأميركية عناصر مراقبة للمتوسّط الذي غدا حوضاً غير روماني، حوضاً يعكس موازين القوى الجديدة للنظام الدولي الجديد المزعوم.

اقتصادياً، غدا المتوسّط أحد الحدود الأكثر سخونة، والأكثر دراماتيكية، والأشد خطورة لما نعرف أنه انقسام بين شمال وجنوب، والذي كان يسمّى وقتذاك، تقسيماً دولياً للعمل. فقد جعل الوضعُ الجديد المتوسّط داخل نظامٍ رأسمالي قوي، وغنيٍّ، مع استعدادٍ كافٍ للحفاظ على مستويات التراكم فيه، وجنوبٍ قابلٍ لأن يستَعْمَر، لأن يسيطر عليه الاستعمار الجديد، أو جنوبٍ مستبعدٍ بفعل نزعة استقلالية غير كافية، ومجرّدٍ، في كلتا الحالين، من الوسائل الكافية لتمكينه من تجاوز تخلّفه.

اللحظة التي نعيشها الآن تشهد تكريساً لهذا البعد في ظلّ تجسيد جغرافي جديد. فبحسب نظرية الخطوط المتخيّلة لم يعد هناك شرق وغرب إذ لم يبقَ لنا سوى وجهتين رئيسيتين هما الشمال والجنوب. والمتوسّط يستحيل إلى إقليمٍ بحري/بري مفضّل، على نحو ما، عندما نحاول أن نفهم كيف يغتذي تكوّن العمود الفقري لهذا الإقليم، في جزء كبير منه، من التفكير النظري والعلمي الذي يُصاغ في الجامعات. من شأن أنماط التفكير هذه أن تقودنا إلى البديهة القائلة إنّ عنصر تكوّن العمود الفقري الأهمّ

الذي برز مؤخراً، هنا، في المتوسّط، كما هي الحال في تاريخنا السياسي، كان الحرس المدني. ذلك أن الحرس المدني، في متوسّط يعتبر أرض لقاء بين الشمال والجنوب، هو القوة الوحيدة التي يناط بها واجبٌ يومي، إلى الآن – واجب غالباً ما يكون قاسياً ولا يلقى، في معظم الأحيان استحسان القائمين بها – يقضي بعدم السماح للفقر ولليأس الاقتصادي، واليأس الثقافي والاجتماعي، بمحاولة الفرار إلى أوروبا، محيلاً بذلك المتوسّط إلى حاجزٍ بين فقراء الأرض وأغنيائها. واضح، إذاً، أن المتوسّط الذي ينظر إليه، في هذا السياق، من «باخرة مخلّعة» تحاول اجتياز مضيق جبل طارق، لا صلة له بالرؤية التي قد يكوّنها عنه أوجينيو دورس (Eugenio d'Ors) عندما كان يحلم بالرَكين المغتسل في مياه متوسّطٍ حولته الأيادي الغربية إلى وطنٍ مثالي لشرعة جديدة تتيح تجاوز ثورة الحشود.[٣]

المتوسّط الحقيقي

نجد أنفسنا إذاً، بعد أن غادرنا أرض المجان، حيال مجالٍ حقيقي للمتوسّط الذي لا يمكن أن ينظَر إليه بالطريقة نفسها من «مدينة الأعاجيب»، بحسب تعريف مندوثا (Mendoza) وبحسب الأحداث المتتالية التي أدّت إلى نشأة برشلونه بوصفها مدينة الأعاجيب [٤]، ومن « مدينة الموتى» في القاهرة، حيث يقيم الأحياء بجوار قبور الموتى ولا أملَ لهم في العثور على أماكن سكنٍ أخرى. أي أن المتوسّط منظوراً إليه من المدينة الأولمبية، لا صلة له بالمتوسّط منظوراً إليه من مدينة الموتى، على الرغم مما أكنّه من الإعجاب بالمدينة الأولمبية وما أكنّه من احترام كبير للناس الذين يتدبّرون عيشهم ما استطاعوا في مدينة الموتى.

بالمقابل، هناك متوسّط يُنظَر إليه انطلاقاً من قراءة بيئية. إنّه أحد أحواض العالم الذي أحاطته اللاعقلانية الفظّة بمخاطر نظامٍ إنتاجي سوف يفنى بإفناء سواه، والذي يفضّل حداً أدنى من

العقلانية لإنقاذ الطبيعة التي يمارس عليها الهدر والتخريب. إنّ المتوسّط هو الأرض المثلى لهذا النوع من التفكير، ما يكسبه طابعاً بديهياً من الواقعية ويبعده عن كلّ احتمالٍ مجازي. فالمتوسّط، بحسب هذه القراءة، هو حوض يسير نحو هلاكه.

هناك أيضاً اقتراحات تأليهية للمتوسّط هي، برأيي، ممارسة مغرضة للتضليل، كما هناك اقتراحات أوْربة هي، أيضاً، عوامل تضليل. ولكن هناك بالمقابل، بعض الاقتراحات التي، جرّاء صلتها بأوروبا معقولة، لا تتسم بطابع التضليل، وتقوم على أساسٍ من ثقافة الانتقاد وانتقاد الذات كافٍ لأن تتشكّل في طريق ثانية في عالمٍ يبدو، في اللحظات الراهنة، وكأنّه لا يمتلك سوى مخرجٍ وحيد. فإذا غلبَت في أوروبا ما قوى مهيمنة هي تلك التي تعمل على تصحيحٍ لسلوك الليبرالية الجديدة البرّي، نكون عندئذ حيال أوروبا جديرة بالاهتمام، يمكن أن تفسّر على أنها طريق ثانية بقراءة مختلفةٍ وفهمٍ شامل للعالم. أما إذا غلب الاتجاه الآخر، تفقد أوروبا كلّ أهمية، وتصبح كتلة ثالثة ذات طابعٍ تبذيري وتخريبي، وتنضمّ إلى الكتلتين الأخريين المبذرّتين والتخريبيتين الماثلتين أصلاً على هذه الأرض. هذا ويستطيع المتوسّط أيضاً أن يختار بين أن يكون مجازاً، أي مكاناً تحتجب فيه الصلات بين شمال وجنوب خلف قناع جديد، أو أن يكون مكاناً تتضح فيه، نهائياً، علاقة الشمال بالجنوب.

إرادة الانتماء إلى المتوسط

نحن نحيا في عالمٍ يُقال إن اللغة قد شاخت فيه، وباتت تفتقد إلى المعنى لأنها ما عادت متطابقة مع أشكال الواقع الراهنة. مما لا شكّ فيه أن هذا الرأي يشتمل على أوجهٍ من الصحّة. ولكن غالباً ما نصادف تلميحات هي وليدة مختبرات التكنوقراطية يصعب تفسيرها. مثلاً، نحن اعتدنا، في أيامنا هذه، استخدام مصطلحاتٍ كشمال/جنوب، ومركز/طرف، التي تعبّر، في الظاهر، عن السعي

وراء لغة تخاطبٍ محايدة، لغة غير مؤذية لكنها، في الحقيقة، تعكس حقيقة الصلة بين المسيطِر والمسيطَر عليه، بين المستغِلّ والمستغلّ، بين المسبّب للتخلف والمتخلّف. فإذا استخدمنا هذه المفردات (مستغِل/مستغل، مسيطر/مسيطر عليه ، إلخ...) تصبح المفردات عدوانية. أما إذا قلنا، بالمقابل، شمال وجنوب، أو مركز وطرف، فإذ ذاك يطمئن الجميع ويرجع كلّ منا إلى داره مرتاحَ الضمير.

من الملحّ جداً أن نجد لغةً للتخاطب لا تقع في طقوس المعجم القديم المفرط في وضوحه ربّما، ولذلك قد يكون باطلاً، ولا تستغرق في حياد هذه اللغة الأخرى وفي عقمها. ذلك أننا نميل، في كثيرٍ من الأحوال، لأن ننسى أن غياب الدراماتيكية يخفي، موضوعياً، مسألة دراماتيكية. ولذلك، وفي إطار التفكير حول المتوسّط، إني أؤيّد مقترحاً يهدف إلى تنمية الوعي ويبتعد عن أي نزعة إرادوية متوسطية، يبتعد عن هذا الضرب من البناء، الإرادوي أحياناً، لنزعاتٍ فوق قومية مصطنعة، وبالتالي، لنزعات قومية مصطنعة – عندما لا يكون وجود النزعات القومية مبرّراً بأسباب موضوعية أو تاريخية. إنّ إرادة الانتماء إلى المتوسّط، أي إرادة أن يكون المرء متوسطياً، تكتسب معنىً عندما تقوم على حدّ أدنى من المبرّرات المادية التي تدعم هذا الواقع. لكنّها تبدو لي سلبية عندما تصبح مجرّد تأمّل يتيح الانطلاق من لا شيء أو تقريباً من لا شيء لصوغ بنية فوقية للإلهاء والتضليل. وبرأيي، أن الشحنة الإيجابية تتأتى من وعي المتوسّط بوصفه مرآتنا الأقرب إلى الاضطراب، كما هو مرآتنا الأقرب إلى عدم المساواة بين الشعوب. يجب ألاّ ننسى أن الرجل الذي حلّل على أوضح وجه أوضاع الشعوب التي وفدت متأخرة أو في أسوأ الظروف إلى التقسيم الإمبريالي للعالم في القرنين التاسع عشر والعشرين، هو فانون (Fanon) [*]. وهي أوضاع راقبها وحللها انطلاقاً من الجنوب، أي من المتوسّط المهزوم، انطلاقاً من الوجهة القائلة إنّ هذا العالم لا يشتمل على شعوب متقدّمة، بل على أقلية من الشعوب القادرة على

إنجاز التقدّم، وأن قدرتها على تحقيق التراكم والرخاء يرتبط عادةً بعجز الشعوب الواقعة تحت سيطرتها وسيطرة النظام الدولي الذي تفرضه.

أرض مواجهة

إنّ المتوسّط هو المرآة الفضلى لتبيان الهدر المنهجي للرأسمالية، أو في الأقلّ، الرأسمالية البرّية التي مرّت عليه والتي مارست قسوةً تاريخية جعلت اليوم طيَّ النسيان. العالم كلّه يكرّس جهوده لاستعادة أو لإبراز قسوة التناقض، متغافلاً عن حقيقة أن الرأسمالية لها تاريخ من القسوة يمتدّ إلى ثلاث أو أربع مئة سنة، وأن الدماء التي أراقتها الرأسمالية في العالم أجمع، والعذابات التي ولّدتها، لن يعوّض عنها أي جهد يُبذل في مجال المساعدات الإنسانية. نحن إزاء خطرٍ – وتلك بيّنة من بيّنات هذا الوعي العلمي، ومرآة متوسّط الاضطراب هذا – خطرٍ بيئي، هو الخطر الحقيقي الذي، بفعل سماته، بما في ذلك السمات البنيوية، يجعل من المتوسّط بحراً مهدّداً، الأمر الذي يشكّل، في الأقلّ، عامل وعي منبثقٍ من أداتنا الثقافية التقليدية التي تتمثّل بإنقاذ الأشياء قبل زوالها. نحن في حاجةٍ إلى بناء، وإلى تبيان وعي نقدي يناضل ضدّ متوسّطٍ جُعِلَ أرضاً لمواجهة، أرضاً لجمودٍ عقائدي ذي طابعٍ إتني، وذي طابع ديني، يستخدم أداةً كوعيٍ زائفٍ للمشكلات الأساسية الفعلية. أي، بكلامٍ أوضح، إنّ تحويل مشكلة المتوسّط إلى صراعٍ بين الإسلام والمسيحية لن يكون، في مثل هذه الآونة، سوى ضربٍ من السخرية. فالمتوسّط هو، أساساً، ساحة مواجهات بين الفقر والغنى، وهي السمات التي قد تستغلّ، من وجهة نظر إيديولوجية ودينية، لتحويل المتوسّط إلى ساحة حروبٍ دينية. مثل هذا ينبغي أن يُستَغَلّ أولاً لبذل مجهودٍ لفهم طبيعة المزايا الثقافية التي تؤدي إلى هذه المواقف، ومن ثمّ لبذل مجهود آخرٍ بغية إيجاد عقلٍ متوسّطي يكون بمثابة مقاربة أولى لعقل جامعٍ يسهم في تجاوز العقائد الجامدة مهما كانت. فالمتوسّط، برأيي، يجب أن

يكون مجالاً لبناء العقل، ولكن أيضاً ينبغي أن يكون، في المقام الأول، مجالاً، لإعادة بناء ذاته، من دون أن نغفل حقيقة أن العقل، إذا توجّب علينا بناؤه من مستوى التورّط وترابط العلاقات بيننا من الناحية الاقتصادية والسياسية والثقافية ومن كلّ ناحية أخرى، لتعيّن علينا الانطلاق من القاعدة القائلة بأن العقل هو جامع، تعريفاً، وهو جامعٌ على نحوٍ نهائي، وإلاّ عجزنا عن بنائه. وغير ذلك فإن ما سنبنيه لن يكون، بالمقابل، سوى تشرذم لاعقلاني وتجزيئي سوف يقودنا إلى معنىً جديد للقسوة وإلى معنىً جديد للألم، وللعذاب التاريخي.

ولكن مهما انكببنا على النظر في مشكلة المتوسّط، فإن ذلك لا يعني أن يحجب المتوسّط عنّا رؤية الأطلسي وبقية الخارطة المحيطية. فمن صالحنا، انطلاقاً مما هو مباشر، مما هو ملموس، أن نتوصّل إلى الشمولية عبر تطبيق سيرورة الوعي النقدي التي تبدو، في أيامنا هذه، شبه إلزامية، وخصوصاً بعد أن مررنا بعقودٍ من الزمن كان العكس، خلالها، هو الصحيح، وحيث كانت تُهمَل الضحايا الموسومة بأنها شاملة أو كليّة لما كان حقيقة العالم، من أفراد وتصرّفاتٍ فردية أو وطنية، من دولٍ ومجموعة أو طبقة، كما تهمل أيضاً الآثار الناجمة عن بعض المجموعات الملموسة مالكة القدر المفرط من المعرفة ذات الطابع الشمولي والكلّي.

إننا نجتاز حقبةً يتوجّب علينا فيها أن نفسّر، على نحوٍ نقدي، النتائج لكي نعثر على الأسباب التي أدّت إلى هذه النتائج. حقبة ينبغي أن تجدّد المعارف، وينبغي أن تعاود تمثّل الواقع، وهضمه، بالمعنى الذي يكون فيه هضم الواقع هو معرفةٌ ما هي أوجه قصوره وما هو الردّ البديل الضروري سواء على المستوى العملي أم على مستوى اللغة، اللغة التي تضفي معنىً، التي تضفي على الفعلِ قابلية التواصل. وفق هذه الفكرة، يكون المتوسّط ساحةً رائعة : إذ يغدو التأمّل في واقع المتوسّط بمثابة رحلةٍ تشبه تلك التي قامت بها الفلسفة اليونانية، بمعنى الـ aletheïa . فهذه كانت

تعبيراً عن لقاء الحقيقة على نحوٍ حاسمٍ، وفق الطريقة القاضية بكشف الحجبِ عن الألوهة، حجاباً تلو الآخر، حتّى بلوغ النهاية، أي بلوغ العري الذي كانَ هو الحقيقة. إنّ تبيان نتائج الاضطراب العالمي – بالنظر إلى المتوسّط من الناحية السياسية والاقتصادية والبيئية والاستراتيجية – ونزع الحجب عنه سوف يتيحان التوصّل إلى أسباب الوضع، والتوصّل إلى اكتشاف النظام الذي يشجّع على رذل حوضنا. فالانطلاق من تحليل النتائج وصولاً إلى الأسباب سيكون جهداً جدلياً ملحّاً، وخاصّة بالنسبة للأجيال المقبلة غير الملزمة بأن ترث النظريات، باعتبار أن كلّ جيل له مطلق الحقّ في التوصّل إلى النظرية عبر ملاحظة وتبيان الاضطراب الماثلِ في الواقع.

برابرة الشمال

يبدو المتوسّط اليوم وكأنّه المستودع المفضّل لكلّ أشكال البؤس ولكل إفلاسات النظام. لكنّه أيضاً، وفي الوقت نفسه، نقطة حسّاسة للتأمّل النقدي، ولتكامل الطبيعة ولتفسير أصول البربرية. في واحدةٍ من أفضل قصائده شكّك كافافي (Cavafis) في وجود البرابرة: «طويلاً انتظرنا مجيء البرابرة. ولم يأتوا. فلا وجود للبرابرة». ولا بدّ أنها كانت دعابة، سخرية واضحة من قبل الكاتب، لأن المتوسّط ما كان ليوجد لولا البرابرة. فالمتوسّط هو سلسلة متصلة من البربريات التي تتراكم وتتمازج حتّى تكوّن نظرية متوسطية حقيقية مزعومة. إنّ مشكلتنا، لا بل تحدينا الكبير، هو أن نكتشف البرابرة الذين يقيمون في دارنا، برابرة الشمال القادرين على مواجهة حقيقة المتوسّط من موقع القدرة الكلية وإرادة الهيمنة من دون منازع. ينبغي أن نخشى، على وجه الخصوص، برابرة الشمال في الوضع الحالي الذي يشهد توطيداً نهائياً للديمقراطية، وتكريساً مزعوماً نهائياً لاقتصاد السوق. ففي ظلّ الديمقراطية واقتصاد السوق القائمين في الشمال، صارت السوق حرّة كما لم تكن، إلاّ فيما ندر، من قبل، وصارت القدرة أقلّ، كما لم

تكن إلاّ فيما ندر من قبل، على ممارسة التعدّد واحترام الاختلاف في إطار المعطيات الثقافية التي حدّدها الشمال. إذ تجري الأمور وكأن الشمال، بعد أزمة القرن التاسع عشر الكبرى، وبعد قتل الله والإنسان وماركس - أو، في الأقلّ، بعد طرحهم في أصقاعٍ نائية - وبعد قتل كلّ الأنبياء تقريباً باسم سلبية الدعاوى النبوية، لم يَبقِ من بين الأنبياء إلاّ على بوبر (Popper) وخيسوس جيل إي جيل (Jesus Gil y Gil)[٦]. في مثل هذا الوضع، بإمكان الشمال أن يقصف بقية العالم برسائل هي مزيج من تواطؤ مستهجن بين ثلاثة كيانات بالغة الوضوح : كبير المحقّقين (في محاكم التفتيش) - وهو السلطة بالمعنى البرّاني التام للعبارة، المجسّد أحياناً بالدولة، وأحياناً أخرى بالدول الممتازة - الأخ الأكبر - الذي لن يكون، في هذه الحال، الأخ الأكبر الذي تخيّله أورويل (Orwell) والوافدِ من الشرق، بل الأخ الأكبر الوافد من الشمال -، والمستهلك الأكبر - مثال للمستهلك المفضّل، الذي يجسّد هذا الرجل (أو تلك المرأة) الوسطي، والمركزي، والمركّز، والذي باسمه تُجرى تنزيلات سلسلة مخازن «Corte Ingles»[٧]، والذي يؤدي دور ديكتاتور سلوكِ التشكيلات السياسية، وديكتاتور الديمقراطيات والعلاقات الشخصية. إنّ اقتراح تحالف هذه الأساطير الثلاث - المحقّق الأكبر، والأخ الأكبر، والمستهلك الأكبر - قد يتحوّل بين أيدي الشمال، إلى اقتراح حقيقة مضادة، إلى اقتراح فذلكة جديدة للعلاقات مع الجنوب، فيما يُحتَفَظ للشمال - وفي حال فشل مؤامرة الإنتلجنسيا - باحتمال قذف القنابل الذكية التي توفّر الفلاسفة المرتهنين لكنّها تطاول ملعوني التاريخ.

بمثابة تفكير : متوسّط هجين يتغذّى بالزيت والزيتون والباذنجان

إني أدعو إلى متوسّط هجين (خلاسي) كما كنتُ على الدوام. فالمتوسّط لم يكن يوماً هجيناً بقوة العقل، بل بعقل القوّة. ويجد نفسه اليوم في وضعٍ سوف يفضي به لأن يصبح هجيناً بقوة

العقل. في الأمبوردان (Ampurdán) – في تلك المنطقة من الأمبوردان المنخفضة التي تقع بموازاة جزر ميداس، والتي شهدت تاريخياً سيطرة أسياد كروييس – يؤكّد معتقد شعبي بأن من ليس ابناً لأحد أسياد كروييس لا بدّ أن يكون ابناً لتركي (إذ توافد الأتراك على جزر ميداس حتّى القرن التاسع عشر). لم يكن ذاك تهجيناً بقوة العقل بل بعقل القوة. ذلك أن المتوسّط إمّا أن يتحوّل إلى الهجنة بقوة العقل، وإما أن يتحوّل إلى مجالٍ فقاري لأوروبا وحدها التي استحالت حصناً يحيط به متّسع من الماء من شأنه أن يحول دون محاولة البرابرة الاستيلاء على الشمال. يجب أن نعمل لكي يصبح ممكناً قيام ميثاق تطابق، ميثاق نموّ ومسؤولية متبادلة لكي نجتنب تحوّل المتوسّط إلى حدود تقيمها الرأسمالية البرّية دونَ زحفِ شعوب الجنوب.

يجب أن نناضل، مستعينين بأدوات تفكير ملائمة، ضدّ اقتراح حقيقة مضادة للمتوسّط التي غالباً ما تكون أسوأ لأنها مموهة بتراكم معلومات وحكمة ولغة تخفي طاقة الكذب بشأن الهوية المتوسطية.

في ختام هذه المطالعة، بتنا قادرين على التوصّل إلى خلاصات على قدرٍ من الانفتاح لتأييد كلّ تساؤل حول المتوسّط سواء بوصفه واقعاً أم بوصفه مجازاً، وأن نبدي أيضاً قدراً كافياً من التشكيك لكي نفهم المتوسّط بوصفه ثمرةً إضافية من ثمرات الخيال. أقترح أن نتوصّل، في الأقلّ، إلى خلاصة علمية لا تُدحَض : وهي أن المتوسّط مكان حيث يستهلك فيه النساء والرجال الزيت والزيتون والباذنجان، وهي العناصر والمواد الأساسية في كلّ مطبخٍ متوسّطي. الفرنسيون بهذا المعنى عُصاةٌ بعضَ الشيء، ولكن ينبغي الأخذ بالاعتبار أن المتوسّط الفرنسي هو متوسّط لا يُعَوَّلُ عليه. إنّ الزيت والزيتون والباذنجان تشكّل جزءاً لا يتجزّأ من احتمال صوغ رؤية حقيقية، إنسانوية، للمتوسّط. فإذا كنا مجمعين على أن الانسان هو ما يأكله – وهو الاستنتاج الذي خلص إليه

مفكّرون مختلفون فيما بينهم، أمثال هيبوقراطس وأرسطو وفويرباخ وكارفالهو – أمكننا التوصّل إلى الاستنتاج بأن ثمّة وجوداً موضوعياً للشعب المتوسّطي الذي يأكل الزيت والزيتون والباذنجان. ويكون هذا الاستنتاج صالحاً للقول، ختاماً، إن المتوسّط موجود لأنّ مدينةً ما، لأنّ وطناً ما، أيا كان أو كانت، هي في الأصل مجموع الناس الذين تتألّف منهم. إنه المبدأ الذي أجمع عليه مفكّرون مختلفون فيما بينهم، أمثال تيوسيديوس وشكسبير وپاسكوال ماراغال (Pasqual Maragall) [٨].

المراجع

(١) دراسة صدرت عام ١٩٢١ ؛ يتبيّن فيها الفيلسوف خوسيه أورتيغا إي غاسيت (١٨٨٣–١٩٥٥) أنّ السبب العميق لمأساة أسبانيا التاريخية يكمن في قصور نخبها، وغياب الأقلية القيادية التي تستحقّ هذه الصفة. و «أسبانيا اللافقارية» تمهّد للدراسة الرئيسية التي صدرت عام ١٩٣٠، بعنوان «تمرّد الحشود»، الوارد ذكرها فيما يلي.

(٢) حركة كتالانية، فنية وسياسية في وقتٍ معاً، ازدهرت بين ١٩٠٦ و١٩٢٣، بعد تيار الحداثية الذي ترغب في تجاوزه بالعودة إلى المعايير الجمالية الكلاسيكية الصارمة.

(٣) الرّكين، هو عملٌ لأوجينيو دورس إي روفيرا، وهو فيلسوف وناقد فني من برشلونه (١٨٨٢–١٩٥٤)، نشر عام ١٩١٢ تحت هذا العنوان الرمزي (La ben plantada)، والنص هو عبارة عن بحث فلسفي في صيغة روائية، جعلت بطلته كنايةً عن امتياز العرق الكتالاني. والإشارة إلى ثورة الحشود تحيل القارىء إلى المبحث الذي كتبه الفيلسوف أورتيغا إي غاسيت، وهو معاصر لأوجينيو دورس، الصادر عام ١٩٣٠، بعنوان «La rebelion de las masas» : والمعروف أن مضمون الكتاب هو مديح لرسالة النخب، لأنها الوحيدة القادرة على قيادة الجماهير اللافقارية إلى الخلاص.

(٤) «مدينة الأعاجيب»، رواية أدواردو مندوثا الرابعة، التي صدرت عام ١٩٨٦، تروي أحداث مغامرة فردية – تصرّفات مغامر عديم الذمّة يبلغ ذروة النجاح الاقتصادي والاجتماعي – على خلفية ملحمة مدينية، ملحمة برشلونة في الفترة بين المعرضين العالميين اللذين أقيما فيها في عامي ١٨٨٨ و١٩٢٩. أنظر الترجمة العربية : «مدينة الأعاجيب» لأدواردو مندوثا، نقلها عن الأسبانية صالح علماني، منشورات دار البلد، دمشق، ٢٠٠٢ .

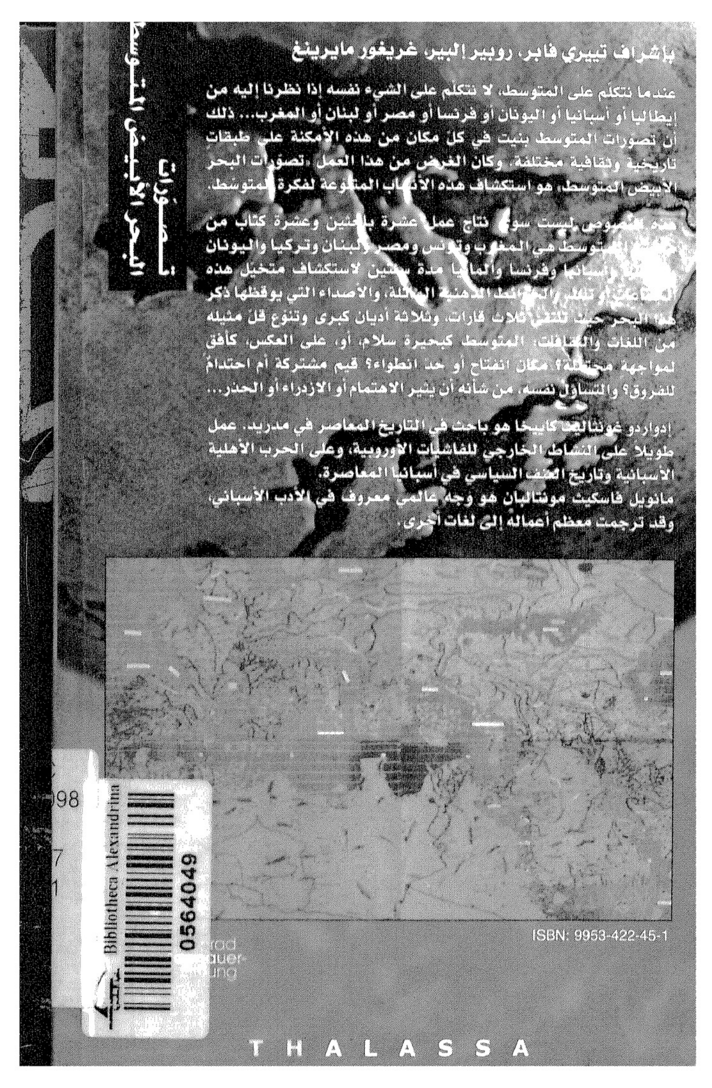
(٥) فرانتز فانون (١٩٢٥–١٩٦١)، محلّل نفسي مارتينيكي، وثائر ناشط في حروب تحرير القارة الإفريقية، يحلّل في عدد من مؤلفاته خصوصية الأوضاع الاستعمارية والأضرار الناجمة عنها.

(٦) رجل أعمال أسباني، عمدة ماربيا، المنتجع الصيفي لمشاهير العالم، ورئيس «أتليتيكو مدريد»، نادي كرة القدم المنافس لريال. وهو رجلٌ

يثير جدلاً واسعاً باتساع ثروته وشهرته.

(٧) حرفياً: «قَصّة إنكليزية»، وهو اسم سلسلة المخازن الكبرى الأكثر شهرةً في أسبانيا.

(٨) حفيد الشاعر الكتالاني الكبير خوان ماراغال، باسكوال ماراغال هو شخصية سياسية من أبرز شخصيات الحزب الاشتراكي في كتالونيا، وعمدة مدينة برشلونة من العام ١٩٨٢ إلى العام ١٩٩٧، دون انقطاع.



بإشراف تييري فابر، روبير البير، غريغور مايرينغ

عندما نتكلم على المتوسط، لا نتكلم على الشيء نفسه إذا نظرنا إليه من إيطاليا أو أسبانيا أو اليونان أو فرنسا أو مصر أو لبنان أو المغرب... ذلك أن تصورات المتوسط بنيت في كل مكان من هذه الأمكنة على طبقات تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الغرض من هذا العمل «تصورات البحر الأبيض المتوسط» هو استكشاف هذه الأسباب المتنوعة لفكرة المتوسط.

هذه النصوص ليست سوى نتاج عمل عشرة باحثين وعشرة كتاب من [illegible] المتوسط هي المغرب وتونس ومصر ولبنان وتركيا واليونان و[illegible] أسبانيا وفرنسا وألمانيا مدة سنتين لاستكشاف متخيل هذه [illegible] و تقلبات العواطف الذهنية الماثلة، والأصداء التي يوقظها ذكر هذا البحر حيث تلتقي ثلاث قارات، وثلاثة أديان كبرى وتنوع قلّ مثيله من اللغات والثقافات. المتوسط كبحيرة سلام، أو، على العكس، كأفق لمواجهة محتملة؟ مكان انفتاح أو حد انطواء؟ قيم مشتركة أم احتدامٌ للفروق؟ والتساؤل نفسه، من شأنه أن يثير الاهتمام أو الازدراء أو الحذر...

إدواردو غونثاليث كاييخا هو باحث في التاريخ المعاصر في مدريد. عمل طويلا على النشاط الخارجي للفاشيات الأوروبية، وعلى الحرب الأهلية الأسبانية وتاريخ العنف السياسي في أسبانيا المعاصرة.
مانويل فاسكيث مونثالبان هو وجه عالمي معروف في الأدب الأسباني، وقد ترجمت معظم أعماله إلى لغات أخرى.

ISBN: 9953-422-45-1

Bibliotheca Alexandrina
05640491
098
7
1

THALASSA

تصورات
البحر الأبيض المتوسط